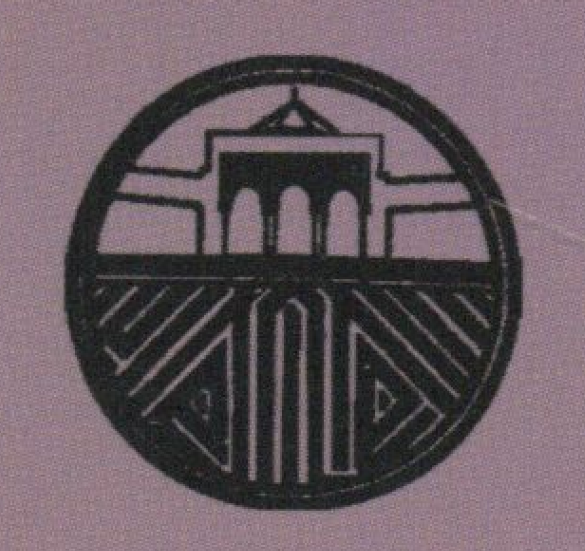


جامعة محمد الخامس- أكدال
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة : ندوات ومناظرات رقم 144



العولمة

وآثارها في الاجتهاد وآفاقه

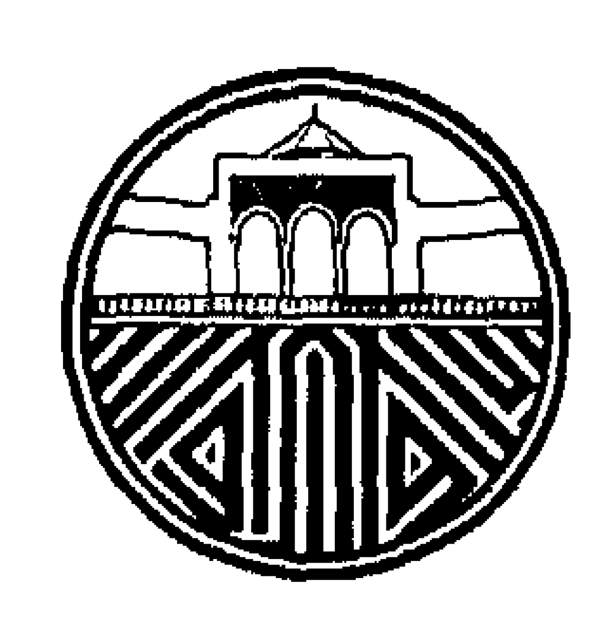
تنسيق
فاروق حمادة



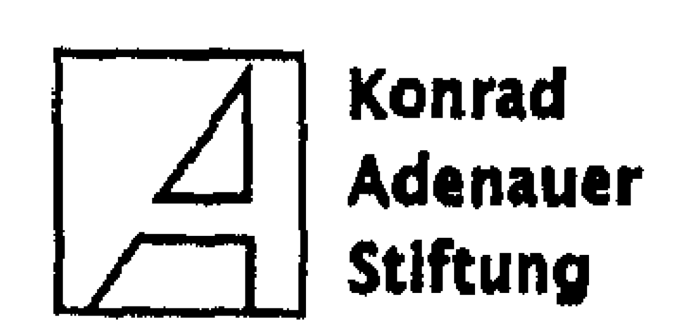
العولمة

وآثارها في الاجتهاد وآفاقه





جامعة محمد الخامس- أكدال
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة : ندوات ومناظرات رقم 144



العولمة

وآثارها في الاجتهاد وآفاقه

تنسيق
فاروق حمادة



الكتــــــاب : العولمة وآثارها في الاجتهاد وآفاقه
سلسلـــــة : ندوات ومناظرات رقم 144
تنسيـــق : فاروق حمادة
النـــاشــر : كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

الطبـــــع : مطبعة النجاح الجديدة – الدارالبيضاء.
التسلسل الدولي : issn 1113-0377
ردمـــــك : 1 - 135 - 59 - 9981
الإيداع القانوني : 2008/0142
الطبـعـــة : الأولى 1429 هـ /2008م

طبع هذا الكتاب بدعم من برنامج التعاون
بين الكليـة ومؤسسة كـونراد أدنـــاور

فهرس المحتويات

تصدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فإن هذه الأبحاث التي ضمّها هذا الكتاب هي خلاصة دراسات ونقاشات أُلقيت في مائدة مستديرة انعقدت بمراكش أيام 27-30 ماي 2004م برعاية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بالرباط، ومؤسسة كونراد أديناور، وكانت دواعي هذه الندوة وأسباب ائتلافها هو زحف العولمة المتنامي يوماً بعد يوم، والتنادي من هنا وهناك لدرس هذا الزحف، وبيان صواب العولمة من خطئها وتمييز إثمها من نفعها، وهذه هي مسؤولية أهل العلم والفكر، وخاصة في مراكزه العليا وجامعاته.

لقد أصبحت العولمة حقيقة واقعة، في كل جوانب الحياة، بدءاً من السياسة وأنظمة الحكم، واعتماداً على الاقتصاد ودورة المال إنتاجاً وتوزيعاً وانتظاماً للعادات والمفاهيم الاجتماعية، وتمكناً من أساليب الفكر والمعرفة ومناهجهما، وهي في زحف دائب وتجذُّر متتابع، جعلت أو كادت تجعل العالم كله بشعوبه وثقافاته وأديانه وأفكاره، متمازجاً متقارباً، يتعايش فيه الناس جميعاً ضمن مفاهيم العولمة، باختيار أو بغير اختيار. ولما كان الاجتهاد على الدوام هو لبّ حركية الإسلام واستمراره عبر العصور يستوعب الجديد ويضعه في الموضع الذي يليق به من القبول أو الرفض فقد أرادت هذه المائدة المستديرة – في حينها – من خلال أفكار الباحثين والدارسين الذين التأموا حولها، أن يبينوا الآفاق التي تتبدّى فيها العولمة حالاً ومآلاً، وأن تبين حدود التمازج الفكري بين ثقافات الأمم والشعوب، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

ولا يخفى على الدارسين أن الإسلام شمولي كوني يتخطى الحدود ويشمل الأجناس البشرية كلها، وكانت حركته منذ انطلاقته كونية، فما هو موقعه من هذه العولمة الكاسحة المعاصرة، وما هو مستقبله في إطار زحفها بثوابتها التي لا تترك مجالاً لغيرها من الثقافات والديانات ؟

وهل ستكون هذه العولمة الوافدة مؤثرة فيه وفي مجتهديه وفي اجتهاداتهم؟ أو سيكون له دور التأثير فيها وتوجيهها ؟

وكيف ستكون الاستفادة المتبادلة بين الإسلام بحركيَّته الاجتهادية، والعولمة المعاصرة بما فيها ؟

لقد قدم نخبة من الباحثين في الدراسات الإسلامية، رؤاهم المتعددة في هذه القضية، وصريح أفكارهم في هذا الحدث الكوني، فجاءت هذه الرؤى والأفكار ترصد هذا الحدث من جهات عديدة وتبينه، سائلين الله تعالى أن تكون هذه الأبحاث لبنة قوية في صرحنا الفكري إجادةً وإفادةً، وهدايةً ، ورشاداً، وأن تكون مناراً في طريق الدارسين والباحثين في كل مكان، والله تعالى وليٌّ كل توفيق ونعمة.

المنسق : فاروق حمادة

العولمة، بدايات ومقاصد

فاروق حمادة
كلية الآداب والعلوم الانسانية – الرباط

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلم البيان، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله سيد الأكوان وعلى آله الخيرة ذوي الرفعة والشأن، وصحابته الكرام أهل الفضل والسابقة والإحسان.

أما بعد :

فإن الإنسان جبل على التطلع إلى معرفة المجهول بترقٍ دائم، وتتابع مستمر، فتاريخ الإنسان في واقع الأمر هو تاريخ البحث والدَّأب المعرفي والإضافة إلى رصيد قدراته التي أوتيها من التفكير، والحسِّ والسمع والرواية، مجتمعة ومنفردة، ولهذا كان الإنسان يسعى لمعرفة الكون من حوله بأرضه وسمائه وبنيانه وأجرامه، وإنسانه ودوابه وحيواناته وهوَّامه، وهذه المعرفة لم ينلها دفعة واحدة بل كانت شيئاً فشيئاً عبر الحقب والأزمان والليالي والأيام، وكان خلال ذلك يقفز قفزات كبيرة إلى الأمام فيكون التغيير جراء ذلك كبيرا، والتحول البشري ظاهراً ملموساً في الفكر، والمادة، والمجتمع.

وقد بين القرآن الكريم كثيراً من هذه القفزات الرائعة الواسعة في محطات هامة من تاريخ البشر، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِين، لَئِنْ بَسَطْتَ...﴾ إلى قوله

تعالى : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِين، فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيه، قَال : يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ المائدة 27-31.

وهذه قفزة فكرية أعقبت تأثيراً عملياً سلكته البشرية كلها إلى يوم الدين، ومن ذلك الحدث الذي غيَّر وجه الأرض وأصبح معلماً في تاريخ الإنسان، ألا وهو الطوفان، وتغير به السلوك والفكر، والتعامل مع المادة وغيرها، إنه حدث هزَّ الإنسان بكل أبعاده وأثر في مسيرته على الدوام، وقد خلَّده القرآن الكريم، ولعلَّه جاء في الكتب المنزلة الأخرى. يقول الله تعالى :

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُون، وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْه، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُون، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيم، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَن، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ....﴾ إلى قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَك، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هود 37-48.

وكانت هذه العملية تحولاً كبيراً في تاريخ البشر، وتعارفاً بينهم، وانطلاقة جديدة بمفهوم جديد ليعمروا هذا الكوكب.

ومن هذه الأحداث المؤثرة في البشر ما حصل من نكسة فكرية وسلوكية، ورجوع إلى حضيض الوثنية، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِين، وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِين، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبا، قَال : هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَال : لاَ أُحِبُّ الآفِلِين، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَال : هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَال : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّين، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَال : هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَر، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَال : يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون،

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاء، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأنعام 74-83.

وتوالت الأحداث التي كانت تجعل الإنسان يتطلع إلى ما وراء نفسه وفكره وقطره، وجاءت الحضارات العظمى التي كان لها شأن في التاريخ فلم تشذ عن هذا الإحساس البشري والجبلة الآدمية، فتطلعت إلى ما وراء حدودها، وحاولت أن تضم عديداً من الأقوام والشعوب، والألوان واللغات ؛ فالحضارة اليونانية طافت في الأرجاء، فالسومريون والحضارات القريبة من بابل وآشور من قبل كانت تنزع إلى خارج حدودها، إذ توجهت هذه الحضارات إلى بلاد العرب، ووادي النيل بأشكال متعددة كالتجارة، والمعرفة، والحروب والفتوحات وغيرها، يقول ول ديورانت في **قصة الحضارة** :

"وكلما رجعنا إلى الوراء في درس اللغة المصرية القديمة، زاد ما نجده فيها من صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية، ويبدو أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمون قبل عصر الأُسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين، والخاتم الأسطواني، وأصله بلا شك من بلاد الجزيرة يظهر في أقدم العهود المعروفة من تاريخ مصر.."[1].

وقد كانت الحروب في الحضارة المصرية من خارج حدودها ترد عليها، وترد بدورها العوادي عنها : "ثم غزا الهكسوس ـ وهم بدو من آسية ـ مصر المتقطعة الأوصال، فأحرقوا مدنها، وهدموا هياكلها، وبدّدوا ما تجمع من ثروتها، وقضوا على كثير من معالم فنونها، وأخضعوا وادي النيل مدى قرنين لحكم ملوك الرعاة.

لقد كانت المدنيات القديمة جزائر صغرى في بحار من الهمجية، أو محلاّت رخية يحيط بها الجياع، والحساد من الصيادين ذوي النزعة الحربية، وكانت

(1) انظر قصة الحضارة : 2/43-44.

حصونها عرضة للتصدع والإنهيار من حين إلى حين ؛ وبهذه الطريقة أغار الكاشيون على دولة بابل، وهاجم الغاليون بلاد اليونان والرومان، واجتاح الهون إيطاليا وهاجم المغول بيجنج.."[2].

وفي خضم هذا الشدّ والجذب، والعيش المرّ والعذب كانت تختلط الأمم والشعوب وتتلاقى، ويحصل بينها التلاقح الفكري والثقافي، ويخرج الإنسان إلى الفضاء الأرحب ومن ذلك الحضارة الفينيقية التي أقامت شبكة تجارية وثقافية ومعرفية حول البحر الأبيض المتوسط وهو لب العالم آنئذ، وأقاموا لهم حاميات في نقاط منيعة على ساحل البحر المتوسط ما زالت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان، أقاموها في قادز وقرطاجنة، ومرسيلية ومالطة وصقيلية وسردانية وقورسقة، بل وفي إنجلترا البعيدة، واحتلوا قبرس وميلوس ورودس، ونقلوا العلوم والفنون من مصر، وكريت والشرق الأدنى، ونشروها في اليونان، وفي إفريقيا وإيطاليا وإسبانيا، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية، وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية[3].

وتقدم الزمن وتتابعت الحضارات، وكلما ورثت حضارة سابقتها حاولت أن توسع دائرة نفوذها، والأديان حاضرة بارزة في خضم هذه الحركة الإنسانية الدؤوب، بل إننا لو رحنا نتلمس ذلك في القرآن الكريم لوجدناه واضحاً جلياً في تعايش الأمم والحضارات، كما في قوله تعالى : ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُف، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاء، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف 76.

ودين الملك قانونه ونظامه الذي يحكم به ويسوس به مملكته، وهم من مملكة أخرى ودولة أخرى.

ونجد ذلك في قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى : قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِين، فَخَرَجَ مِنْهَا

---

(2) انظر قصة الحضارة : 76/2.

(3) قصة الحضارة : 313/2.

خَائِفاً يَتَرَقَّب، قَال : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيل..﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَال : لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ القصص 20-25.

أي لا تخف أن يدركوك فهذه دولة وتلك دولة أخرى وهنا قانون، وهناك قانون آخر.

وتتابعت مسيرة الإنسان في هذا وكان مقصده من الضرب في الأرض وارتياد المجهول، وتوسيع دائرة علمه وحكمه هو تحقيق أكبر قدر من المكاسب والمصالح، وبقي هذا مستمراً عبر الحقب والأجيال وحتى يومنا هذا ؛ وبهذا كانت تتغير معالم الدول والشعوب عبر الأزمان وليست الحربان العالميتان الأولى والثانية ببعيدة، وليست أخبارهما خافية على أحد. لقد تغير وجه العالم جراءهما، وذابت دول وممالك، وقامت دول وإمبراطوريات جديدة ؛ إلا أن المتأمل في مسيرة الفكر البشري وتحركه العسكري والتجاري، عبر التاريخ لا يلمح قانوناً واحداً يطبق على جميع الشعوب، أويحمله الغالب معه ويتساوى فيه مع المغلوب، أوينتصف به المظلوم من الظالم، بل كان الفاتح المنتصر يستذل المقهور المنهزم، ويحط من إنسانيته ؛ وحتى يومنا هذا لم تعرف البشرية قانون المساواة لكل بني البشر إلا مع العالمية الربانية التي جاءت بها الشريعة المحمدية والرسالة الإسلامية، وكانت الأديان من قبل ذلك ولا تزال بقاياها محدودة النطاق، مغلقة الآفاق، مقصورة على أتباعها وأصل النصرانية هو هذا، كما جاء في القول المنسوب إلى المسيح عليه السلام : جئت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، وسواء صح هذا القول أم لم يصح فقد جاء يقيناً في القرآن الكريم في عدد من الآيات البينات ومنها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ الصف 6.

ولما جاءت الرسالة الإسلامية انطلق الفكر الإنساني لأول مرة إلى العالمية والكونية والشمول الإنساني ؛ وقد جاء ذلك في عدد من الآيات البينات، وفيها قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ النساء 79. وقوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ سبأ 28. وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء 107.

ولهذا كان التوجه الإنساني في الإسلام من بدايته ؛ فقد انضوى إليه من جميع الأجناس والأمم والألوان واللغات، وخطاب النبي ﷺ إلى جميع الأمم المحيطة بجزيرة العرب على اختلاف أديانها وألوانها، ووجه رسائله إلى زعماء الأمم كلها وهكذا كان في السنة السادسة إذ أرسل رسائل إلى كسرى ملك الفرس، وهرقل ملك الروم، والمقوقس ملك القبط، والنجاشي ملك الحبشة، وأمراء أطراف الجزيرة، ويكاد يكون المضمون واحداً لجميع الرسائل، إذ فيه دعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والتساوي بين جميع الناس في مسؤولياتهم وحقوقهم ؛ وقد جاء في رسالته إلى هرقل الروم : "أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ـ أي الشعب ـ. و﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئا، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4].

ولقد كان ذلك لأول مرة في تاريخ البشرية الدعوة إلى مساواة جميع الناس، ووضعهم في مرتبة واحدة إذ عرفت كثير من الحضارات استعباد المغلوبين واسترقاقهم.

ولما انداحت فتوحات الإسلام خارج الجزيرة العربية كانت أهدافها واضحة ومقاصدها معروفة مبيّنة، وقد جاء في الوصايا لقادة الجيوش وأمراء السرايا ما يلي : "عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً مع جيش أو سريّة أوصاه في خاصة نفسه، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال : اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث

(4) انظر صحيح البخاري حديث رقم 7.

خصال، أو خلال، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ادعهم إلى الإسلام، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن هم أسلموا فاختاروا دارهم فأخبرهم أنهم كأعراب المؤمنين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، أو قال المسلمين، وأن ليس لهم في الغنيمة والفيء شيء، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن هم فعلوا فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.... الحديث"[5].

وجاء القرآن ليؤكد حقائق في الوجود البشري واختلاف الألوان والألسنة، فلم يلغ شيئاً من ذلك، والإختلاف في هذا أمر مشاهد محسوس لا يمكن أن يزول أو ينمحي. ولهذا وضع القرآن الكريم - وهو الدعوة العالمية للبشر - منطلقاً واضحاً لهذه القضايا التي شغلت الناس قديماً وحديثا، وأخذت الكثير من جهد البشر وعنائهم فقال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُم، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ الروم 22. وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءاً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِك إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاء، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطر 27-28.

فهذا الإختلاف الذي نراه مظهر من مظاهر القدرة الإلَهية، ودليل على بديع السماوات والأرض، فلا مجال للتفاضل به أو التعالي على أساسه، وقد حصل في العهد النبوي أن عيَّر الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رجُلاً بأمه فقال له : يا ابن السوداء، فقال له الرسول ﷺ : "إنك امرؤ فيك جاهلية.."[6].

وبهذا أصبحت المرجعية الفكرية لأول مرة في تاريخ البشر واضحة بينة لكل الناس المسلم، وغير المسلم، وهذا هو الذي كان له الأثر البليغ في تاريخ الإسلام

---

(5) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن.

(6) حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم.

ومن ثمَّ في تاريخ الفكر البشري ؛ فكم من دولة حاربت الإسلام، فلما عرفته انقلبت حاملة له ومدافعة عنه، وقد تناوب على حكم الإسلام كثير من الشعوب والأعراف والألوان والأسر واللغات في أطراف الأرض كلها والمرجعية كانت واحدة لا تفضيل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وكانت هذه أول قفزة حقيقية نحو العالمية الواضحة الصحيحة، بمقاصد راشدة صالحة.

وقد بقي العالم بعضه بين كرٍّ وفر، وأخذ وعطاء، وحرب وسلم وتعاون وخصام حتى النصف الثاني من القرن العشرين إذ بلغت وسائل الإتصال مرحلة عالية في التقريب بين أطراف الأرض وجمعها، وتطلع الإنسان إلى السيطرة على أكبر قدرٍ من الثروات، والتحكم في الخيرات وحيازتها إلى جانب من جوانب الأرض والحياة ؛ فبدأ التفكير العالمي من خلال قنوات مادية اقتصادية، ثم إعلامية، ثم إيديولوجية فكرية، لها مقاصد وغايات معينة، وكان ذلك من القوة العظمى الولايات المتحدة الأمريكية.

فقد بدأت العولمة بالشركات متعددة الجنسيات العابرة للقارات، التي بدأت تنتشر هنا وهناك محاولة السيطرة على الإقتصاد العالمي، وتجعل سيطرة الدول والشعوب على مقدراتها وخيراتها محدودة ؛ وقد وجدنا أن ميزانية خمس عشرة شركة من الشركات متعددة الجنسيات تساوي ميزانيتها ثلث ميزانية العالم كله ؛ وتطور هذا المفهوم مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي إلى أن بلغ المدى مع منظمة التجارة العالمية التي جعلت السياسة الإقتصادية للدول شأناً دوليا، وأصبح لهذه المنظمة القوانين والتشريعات التي تلاحق وتضايق الدول، بل غدا لها قوة التفتيش والملاحقة داخل الدول، ثم تطورت العولمة الجديدة إلى الحضارة والثقافة، وكان لها مقصد واضح ألا وهو صهر كل الثقافات الموجودة على الأرض في بوتقة الثقافة الغربية عامة والأمريكية خاصة، وفرض ذلك على جميع الناس ؛ وقد صرح بذلك رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، ومنهم كلينتون إذ قال : "إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً لتمويل العالم إلى صورتنا".

وقد قال أحد رؤساء مجلس النواب الأمريكي ـ نيوت جنجرتش ـ : "أمريكا وحدها هي التي تستطيع قيادة العالم، وستبقى أمريكا الحضارة العالمية الكونية الوحيدة في تاريخ البشرية، إن نظام قيمنا يحظى بالتقليد والتمثيل حول العالم، بغير حضارتنا الأمريكية الحيوية فإن البربرية والعنف والديكتاتورية ستخيم على كوكبنا الأرضي".

إن المقياس الذي تريده العولمة الجديدة فرضه هو المقياس الذي تريده، ولكنه غير واضح ولا محدد.

وبناءاً على هذا فقد حصلت تغيرات على المستوى الإجتماعي بكل أبعاده، الإنسان فردا، وأسرة ومجموعة، والفرد طفلاً وامرأة وشاباً و...، كما حصلت تغيرات على المستوى السياسي إذ بدأت تنادي بمجموعة من المفاهيم والقيم مثل : الحرية، الديمقراطية، حقوق الإنسان.... إلخ.

ولكن ما هي المرجعية التي يمكن أن يتحاكم الناس إليها عند الإختلاف ؟! وما هو أنموذج التطبيق الواضح الذي يكون مقياساً عند الإنحراف ؟! وما هو المآل الذي سيصير إليه الإنسان بهذه المفاهيم والقيم الإجتماعية والسياسية مع هذا الواقع الإقتصادي ؟!! كلها تساؤلات يطرحها أولو الفكر والعقل، والعالم يسير قدماً نحو التقارب والتعارف ؛ فالكونية والعالمية مسيرة جاءت نتاج التاريخ البشري الطويل، وساهمت فيه جميع الحضارات، وهي سائرة بجانب التطورات العلمية، والابداعات الفكرية دون توقف، فهل يكون هذا التقارب موصلاً إلى التآلف ؟

وإن جميع الأنظمة والتعاليم والقيم والأنشطة الإقتصادية والإجتماعية إذا لم تكن تدور حول سعادة الإنسان، وأمنه واستقراره، وترقيته وطمأنينته فلن تكون إلا عوامل إثارة للفتن والحروب ومدعاة للخصام والشقاق ؛ وللعاقل الرشيد أن يقارن بين العالمية الإسلامية والعولمة الحديثة بدءاً بالقيم، وانتهاءاً بالتطبيق والتنفيذ، في رحاب قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات 13.

والتعارف هو : التآلف والتعاون، فالخصوصية للأقوام والشعوب موجودة، والتعاون الأوسع ماثل حاضر، وفي هذا وذاك مجال للفكر رحب وللتأمل فسيح.

إن العولمة لا تراجع فيها ولا انكفاء، فهي مكسب إنساني عظيم، ولكن الصراع سيكون حول مقاصدها وغاياتها، وحول كثير من وسائلها ومسالكها، وبمقدار سعتها ستكون سعة الصراع، ونحن بذلك على أعتاب عهد جديد.

"العولمة وأثرها في تطور الاجتهاد وآفاقه"

جمال السعيدي

كلية الآداب - الرباط

1. تقديـــم

يتميز موضوع العولمة بأنه قديم وجديد ؛ فهو قديم في أصوله ومبادئه وتاريخه، وجديد من حيث تجلياته ومظاهره.

ونظراً لهذه الثنائية في الشكل والمضمون نجد أن الباحثين والمهتمين أولوا هذا الموضوع عناية كبيرة ؛ تعددت آراؤهم حوله، وتنوعت دراساتهم له.

ويمكن إرجاع أسباب هذا التعدد وهذا التنوع في التناول إلى المنطلقات الفكرية، التي تتحكم - عادة - في طرق العيش وبناء الحضارات. وهذا ما جعل موضوع العولمة يقابَل - بصفة عامة - إما بالرفض أو القبول في أوساط المثقفين والسياسيين في الغرب والبلدان العربية والإسلامية.

فهناك من اعتبر أن العولمة جاءت لتلغي حدود الدولة القومية في كافة المجالات وتجعلها على مستوى عالمي[1].

وهناك من نظر إلى العولمة أنها جاءت بالحلول السحرية لما يعانيه العالم من تخلف، وينتظر المخلص.

---

(1) للمزيد من التوسع يمكن الرجوع إلى بحث الأستاذ أحمد البوكيلي حول : **إشكالية العولمة وسؤال الحوار بين الحضارات**، في الصفحات الآتية : 7-15 ، والبحث المذكور قيد الطبع، لم ينشر بعد.

غيرْ أن الاتجاه الغالب ـ بعد إمعان النظر وتتبع تداعيات العولمة ـ يميل إلى الرفض أو يمكن القول الخوف على الأقل من زحف العولمة وسيطرتها على العالم وخصوصياته الحضارية.. وهذا الموقف هو ما تؤكده ردود الأفعال التي نشاهدها من خلال المظاهرات العالمية المنددة بالعولمة، ومن خلال الآراء التي نسمعها من المثقفين في العالم بصفة عامة والعالم الغربي بصفة خاصة، ومن خلال الدراسات واللقاءات العلمية التي خُصِّصت للنظر في العولمة وآثارها على العالم...

وقد ذهب الأستاذ طلعت رميح إلى أن "العولمة ما هي سوى شكلٍ جديدٍ من أشكال الاستعمار التي شهدها العالم، حيث اتخذ الاستعمار أشكالاً مختلفة حيث بدأ بأشكال الاحتلال العسكري ثم التطورات التي نعرفها جميعا، فجوهر الفكرة الاستعمارية تكمن فيما يطرح الآن باسم العولمة، فاستعباد الشعوب قائم ولكنه يأخذ بمكتسبات العلم والتطورات الاقتصادية ويحاول صياغة مفهوم جديد للاستعمار لا يخرج عن جوهره الأساسي"(2).

2. ما هي العولمة ؟

إن مصطلح العولمة لا وجود له في قواميس اللغة العربية المتداولة في الماضي أو الحاضر، وإنما هو مصطلح دخيل، وهو "ترجمة للكلمة الإنجليزية Globalisation المشتقة من Globe والتي تعني كرة أو الكرة الأرضية، وهو اشتقاق حديث في اللغة الإنجليزية"(3).

وهناك من حاول استبدال هذاالمصطلح بمصطلح آخر وهو "العالمية" استنادا إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنبياء، الآية : 106، للدلالة على أن المسلمين أولى من غيرهم بقيادة الحضارة الإنسانية وجعلها على

(2) بحث مقدّم إلى مؤتمر : الإسلام والعولمة، ص. 56 الدار القومية العربية، القاهرة، 1999م. تأليف د. محمد إبراهيم مبروك وآخرين.

(3) انظر بحث إشكالية العولمة... للأستاذ أحمد البوكيلي، ص. 22.

نمط واحد مستوعب للتعددية، بدلا من الخضوع لدعاة العولمة الذين يرغبون في أن تشمل جميع الحضارات وتجعل نمط تفكيرهم وأسلوب حياتهم "كونياً" تذوب معه كافة الخصوصيات.

ومن المعلوم في الدراسات المصطلحية أن الألفاظ تحمل معان، يَصطلح عليها واضعوها، وتصبح مفاهيم يتداولها الناس ؛ ولا يمكن فهمها وتداولها إلا على حسب المعاني التي أرادها لها واضعوها.

وبناءً على ذلك لا يمكن عزلُ السلوك والقيم عن الأفكار والتصورات في وضع الألفاظ، ومن هذه الألفاظ لفظ العولمة. فلا يمكن فهم هذا اللفظ إلا في إطاره الذي وضع فيه.

3. الآثار النظرية والتطبيقية لمفهوم العولمة

لا يختلف اثنان في أن العولمة مصطلح غربي، أراد واضعوه أن يفيد معنى واحداً وهو أن تكون حياة الناس في العالم على نمط واحد، تنتفي معه الحدود الجغرافية والجمركية وتفتقد الدول سيادتها على أراضيها واقتصادها وسياستها وثقافتها.

كما لا يختلف اثنان في أن الغرب ـ مهد العولمة وإنتاجها وتصديرها للعالم ـ بعدما خرج من الدول التي استعمرها ترك بصمات في جوانب الحياة المختلفة، أهّلته ليحرز تقدّماً، ويترك تلك الدول متخلفة، غيرَ مستغنيةٍ عنه خاصة في المجالات التكنولوجية والاقتصادية...

وقد ترتب على ذلك أن شعر الغرب بـ "النخوة" و"الغرور" مما جعله يريد تعميم العولمة بهدف السيطرة على العالم.

وقد ذهب الدكتور مجدي قرقر إلى أن للعولمة أثرين سيّئين بشكل كبير غير الآثار الضارة الأخرى :

الأثر الأول : هو ضرب دور الدولة الوطنية في المجالين الاقتصادي والسياسي.

الأثر الثاني : هو ضرب الهُوية الثقافية للأمة[4].

يمكن إرجاع هذه الآثار السَّلبية للعولمة إلى غرور أصحابها، وصفة الغرور ليست وليدة العصر، بل نجدها رافقت الإنسان في كل زمان ومكان. وقد جعلها الله تعالى سنة كونية ماضية إلى يوم الدين، وأمرنا بالابتعاد عن الاتصاف بها، وحذرنا من الاستهانة بالآثار المترتبة عليها. قال الحق سبحانه : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ سورة غافر، الآيات : 82-84.

وقال تعالى في اغترار قارون بماله الكثير : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِيحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ سورة القصص، الآيات : 76-81.

وهناك نماذج أخرى من غرور أصحاب القوة المادية في القرآن قصها الله تعالى علينا لنأخذ العبرة منها، وقد يقع بعض المسلمين في فخ الغرور فيصيبهم ما أصاب غيرهم لأن سنن الله جارية لا تحابي أحداً، ولنقرأ قوله تعالى بتمعن، وهو يقص علينا طرفاً من هذا الغرور : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة التوبة، الآيات : 25-27.

---

(4) بحث مقدم إلى مؤتمر الإسلام والعولمة، ص. 70.

من خلال هذه الآيات الكريمة ـ وغيرها كثير ـ يتبين لنا أن وعدَ اللهِ ووعيدَه في الدنيا ظاهران لا يخفيان إلا عمّن كفر أو اغترّ.

يقول الدكتور محمد السيد الجليند : "إن القرن القادم ما لم يشهد تحولاً جذريا نحو منطق الحضارة الإنسانية التي يحمل لواءَها الإسلامُ، فالويل للبشرية من أهداف ومقاصد الحضارة الغربية التي لا تعرف لها ديناً ولا خلقاً. قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[5].

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن البُعدَ عن الله تعالى في بناء الحضارة الإنسانية مؤذن بالظلم والعدوان والخراب ودخول المغلوب تحت سيطرة الغالب.

ومن العلماء الاجتماعيين الذين رصدوا الظواهر الاجتماعية في العهود الماضية، وتتبعوا آثارها في الحال والمآل، من هؤلاء العلماء نجد ابنَ خلدون، الذي عندما نقرأ كتابه "**المقدمة**" ونقارن ذلك بواقعنا المحلي والإقليمي والدولي، يظهر لنا أنه كأنه حاضر بيننا يرى فيصف، ويكتب فيكشف.

وهذه بعض النصوص أقترح عليكم تأملها معي.

النص الأول

"إعلم أن الله سبحانه ركّب في طبائع البشر الخيرَ والشَّرَّ كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ سورة البلد، الآية : 10 ، وقال : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ سورة الشمس، الآية : 8 ، والشَّرُّ أقرب الخلال إليه إذا أُهمِلَ في مرعى عوائده ولم يهذّبه الاقتداء بالدين. وعلى ذلك الجمُّ الغفيرُ إلاَّ من وفّقه الله. ومن أخلاق الشرِّ فيه الظلمُ والعدوانُ بعضٌ على بعض. فمن امتدت عينُه إلى متاع أخيه فقد امتدت يده إلى أخذه، إلى أن يصدَّه وازعٌ، كما قال :

والظلم من شيَم النفوس وإن تجدْ ذا عفَّةٍ فلِعلَّةٍ لا يَظلِم"[6]

---

(5) **المسلمون وفقه السنن الإلهية، معالم النهوض في القرن القادم**، بحث ألقي في مؤتمر الإسلام والعولمة، ص. 55 والآية التي استدل بها الكاتب هي جزء من الآية 24 من سورة يونس.

(6) **المقدمة**، ص. 127، دار القلم، بيروت، ط. 4. 1981.

إن ابنَ خلدون في هذا النص يبين لنا أن الإنسان تتنازعه قوتان متعارضتان : قوةُ الخير وقوة الشر. فقوّة الخير مرجعها الدينُ، أما قوة الشر فإنها تحل محلّ قوة الخير عندما لا يعمل بالدين أصلاً أو عندما يضعف في نفس صاحبه. ويمكن القولُ : إنها سنة عامة في كل زمان ومكان.

النص الثاني

"وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيّته من الحسّ والحركة والغِذاء والكِنِّ وغير ذلك. وإنما تميَّزَ عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسِه والاجتماع المهيِّئ لذلك التعاون وقبولِ ما جاءتْ به الأنبياءُ عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكّرٌ في ذلك كلّه دائماً لا يفتُرُ عن الفكر فيه طرفة عينٍ بلِ اختلاجُ الفكر أسرعُ من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم"[7].

نلاحظ في هذا النص أن ابن خلدون يبرز تميز الإنسان عن الحيوان بفكره الذي يستطيع به أن يبني به الحضارة، مهتدياً بالوحي، ولذلك يعمل لآخرته. ولا يكتفي بإشباع غرائزه ورغباته المادية فحسب كالحيوانات. وهو بعقله فاق المخلوقات كلها، بغض النظر عن حجمها الذي يكون بعضها أضخم من الإنسان.. لكن الإنسان بعقله يستطيع ترويضها وتسخيرها لمصالحه...

النص الثالث

يذكر ابن خلدون "أن المغلوبَ مولَعٌ أبداً بالاقتداء بالغالبِ في شعاره وزيِّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"[8] "والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غَلَبَها وانقادت إليه إما لنظرِه بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه، لِما تُغالِطُ به مِن أن انقيادها ليسَ لغَلَبٍ طبيعيٍّ، إنما هو لكمال الغالب. فإذا غالطت بذلك

(7) نفس المصدر، ص. 329.

(8) المقدمة، ص. 147.

واتصل لها اعتقاداً انتحلَتْ جميعَ مذاهبِ الغالبِ وتشبّهت به وذلك هو الاقتداءُ، أو لِما تراه والله أعلمُ مِنْ أنَّ غَلْبَ الغالب لها ليس بعصبيّةٍ ولا قوَّةِ بأسٍ، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تُغالط أيضاً بذلك عن الغلْبِ وهذا راجعٌ للأوَّل. ولذلك ترى المغلوب يتشبّه بالغالبِ في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله"[9].

إن هذا النص يمكن تلخيصه في العبارة التالية : إن الضعيف ينظر دائماً إلى من هو أقوى منه بنظرة إعجابٍ وانبهارٍ، يفقدُ معها ملكته العقليّة ؛ فلا يستطيع تمييز ما يأتيه من ذلك القوي، من أفكارٍ وأقوالٍ وتصرّفاتٍ.

ونحن حينما نحاول فهم ما يجري الآن، وما ينتجه الغربُ من أفكارٍ ومصطلحاتٍ كالعولمة مثلاً، نكون أمام خيارين، في التعامل مع الإشكالاتَ الحاصلة في المفاهيم، إما أن نرفضها وإما أن نقبلها.

غير أن العقل العربي ـ بصفة عامة ـ "لا يستطيع مواجهة ذلك كله بمجرد الرفض والموقف السلبي، كما أنه لا يملك من الشروط والمؤسسات والظروف الموضوعية والذاتية ما يمَكِّنُه من نقل الخبرة الغربية لو أراد ذلك"[10].

والسبب في ذلك يرجع ـ حسب الدكتور طه جابر العلواني ـ إلى أن "العقلِ العربي المسلم لا يزال يرزح تحت نير "التقليد". وعقليّة "التقليد" عقليةٌ عاجزةٌ بطبيعتها عن توليد الأسئلة والأفكار واستثارة العقل، ودفعِه لإثارة "الإشكالات المعرفيّة" الكبرى مثل هذه الإشكالية فضلا عن تقديم الحلول لها..."[11].

4. كيف ينبغي التعامل مع العولمة ؟

ويمكن أن نقلب السؤال فنقول : كيفي ينبغي لأصحاب العولمة أن يتعاملوا مع غيرهم ؟

---

(9) المصدر السابق، ص. 147.

(10) مقال حول التعددية : أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع للدكتور طه جابر العلواني، ص. 43، مجلة الاجتهاد، العددان : 59-60، السنة 15/1424-2003.

(11) نفس المرجع والصفحة.

وهذا يعني أن جميع الناس مطالبون بأن يعوا أنهم موجودون في هذا الكون للتعارف. قال سبحانه : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات، الآية : 13 . ويمكن أن نستنبط من هذه الآية أنه بالتعارف يمكننا أن نتفتح على غيرنا، كما أن غيرنا يمكنه أن يتفتح علينا، وبذلك يحصل تبادل المنافع ويتحقق معنى تسخير بعضنا لبعض ؛ فالجميع محتاج إلى غيره، بغض النظر عن درجة الحاجة وقيمتها. ويشهد لهذا قوله عز وجل : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ سورة الزخرف، الآية : 32. بل كل الناس مأمورون بأن يتعاونوا في هذه الحياة، قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ سورة المائدة، جزء من الآية : 2. وهذا يعني أن الجميع يحتاج إلى أسس ومنطلقات ومقاصد وغايات سامية ومتعالية، ولا توجد إلا في الدين، وفي الدين وحده.

قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ سورة المائدة، جزء من الآية : 3.

فهل دعاة العولمة ومصدّروها إلى العالم بالترغيب والترهيب قادرون على تحقيق رغبات الناس في أن يعبروا عن آرائهم ويساهموا في بناء الحضارة الإنسانية ؟ وهل هم قادرون كذلك على السماح لغيرهم بأن تُحترمَ خصوصياتهم الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية. وهل هم قادرون أيضاً على فسح المجال أمام غيرهم للتعبير عن تطلعاتهم نحو المستقبل المشترك ؟

"فكما أنه لا إكراه في الدين، فلا إكراه في المعرفة والعلم"[12] كما قال الدكتور طه جابر العلواني.

---

(12) مجلة الاجتهاد السالفة الذكر، ص. 46.

ولا يكون العمران البشري إلا بالتعاون، الذي به يتحقق معنى الاستخلاف الذي أراده الله تعالى للإنسان في هذا الكون، وإلا فإن الحياة ستبقى غارقة في وحل الاضطرابات والفوضى والتدمير، بدل الاستقرار والنظام والتعمير.

وقد أكد ابن خلدون أن الاجتماع الإنساني ضروري، وإلا لم يكمل وجودُهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافِهِ إيَّاهم، وهذا هو معنى العمران"[13].

وإذا لم يتحقق العمران ـ لا قدّر الله ـ فيمكن القول: وهذا هو معنى الخراب.

إن العالم اليوم أصبح ـ أكثر من أي وقت مضى ـ في حاجة ماسة إلى التعقل والتريث والمراجعة والنقد البناء، من أجل استشراف مستقبل زاهر.

إن هذا العالم يمكن تشبيهه اليوم ليس بـ"القرية الكونية"، بل بـ"السفينة" المذكورة في الحديث النبوي، الذي رواه البخاري عن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا عَن النَّبيِّ ﷺ قال: "مَثَلُ الْقَائِم عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً"[14].

(13) **المقدمة**، ص. 43.

(14) **الجامع الصحيح**، كتاب الشركة وكتاب الشهادات، والسنن للترمذي في كتاب الفتن، والمسند لأحمد، مسند الكوفيين.

مظاهر تأثير العولمة
في الاجتهاد الفقهي المعاصر

محمد الروكي
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس . أكدال . الرباط

لقد عرف واقعنا المعاصر تحولات نوعية في طبيعة الحياة، وتطورات جذرية في الأدوات والوسائل والأساليب والمنهج، وتغيرات كيفية في الفكر والثقافة والتربية والإعلام والسياسة والاقتصاد، وغير ذلك من مضامين الحياة المعاصرة ونظمها الحديثة، واستعد بذلك أو أعد لأن يخوض لجج تفاعل هذه التحولات والتطورات والتغيرات، وأن ينقاد طوعاً أو كرهاً إلى اقتحام تمازج الحضارات والثقافات والعادات، في ظل النظام العالمي الجديد، الذي لا يخفى على العاقل مكوناته وخلفياته وآفاقه وتوجهاته وسياسته في الحال والمآل. ولهذا النظام ماله، وعليه ما عليه، ومن أسوإ ما عليه : أن الأقوى فيه يريد حمل كل من سواه، وإلجاءَه إلى تقديس إرادته وتعظيم مشيئته، وجعله تابعاً له يأتمر بأمره ويسير بإذنه. ومما قد يكون له مما جاء في طيه : ما رافقه من هذه التطورات العميقة في العلم والتكنولوجيا، التي جعلت عجلة الحياة تتحرك وتسير بسرعة نوعية لا قبل للإنسان بها.

والذي يعنينا أن هذا الشطر في العولمة يمكن أن تكون له آثار إيجابية على الاجتهاد الفقهي المعاصر يمكن رصد بعض مظاهرها من خلال المبحثين الآتيين :

المبحث الأول : تنشيط الاجتهاد الفقهي وتحريك دواليبه ؛

المبحث الثاني : تقويم الاجتهاد الفقهي وتمحيص نتائجه.

المبحث الأول : تنشيط الاجتهاد الفقهي وتحريك دواليبه

في ظل العولمة يستطيع الاجتهاد الفقهي أن يعرف نشاطاً أوسع وحركة أعمق عن طريق ما ترشح به من آليات وتقنيات حديثة تقرب البعيد، وتيسر العسير. وفي ظل هذه العولمة أيضاً يستطيع الاجتهاد أن يزدهر أكثر ويُستغَل أكثر ويُوصل به إلى أقصى حد ممكن. ولتأكيد ذلك يمكن التمثيل بالأمور الآتية مما يمكن توظيف العولمة له وتسخيرها لتحقيقه واكتسابه في مجال الاجتهاد :

1 ـ تعميق فقه الواقع واستيعاب المستجدات :

فتصور الفروع والجزئيات سابق على الحكم عليها سبق الموصوف على الصفة، والجوهر على العرض، وصحة نتائج الاجتهاد في واقعنا المعاصر مبنية على صحة مقدماته، وسلامتُه مرهونة بسلامة النظر فيما هو له. والعمل الفقهي في الاجتهاد مؤسسٌ على ركنين لا يستقيم البناء إلا بثباتهما ورسوخهما، وهما فقه التأصيل وفقه التنزيل، وبسلامتهما تُضمن سلامةَ الحكم تحقيقاً وتطبيقاً، وفي ظل العولمة واستعانة بأدواتها ووسائلها الحديثة يستطيع الذي يباشر الاجتهاد أن يتمكن من تصور ما جد في الحياة المعاصرة من أعيان الجزئيات، وإدراك طبيعتها وما هي عليه من البساطة والتركيب، ثم استخلاص حكمها وتنزيله على موارده منها. فإتقان مرحلة التصور واستيعاب المحكم عليه استيعاباً كاملاً صحيحاً هو الباب المفضي إلى إتقان مرحلة التصديق وتقرير الحكم الشرعي على محله وتنزيله على مورده. وكثيراً ما يتسرب الخطأ في الاجتهاد لدى الفقهاء بسبب خلل أو قصور في تصور ما يعرض على أنظار المجتهدين، وكثيراً ما يقع الخلاف بين الفقهاء في مسائل الاجتهاد بسبب اختلافهم وتفاوتهم في تحصيل التصورات وتشخيص الماهيات وتحقيق المناطات. فالحكم على الشيء فرع عن تصوره،

وفقه الواقع واستيعاب جزئياته وإدراك حوادثه ونوازله الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها، كل ذلك تصور، فلا غنى عنه للفقيه إذا أراد لشيء من ذلك أن يكيفه مع الحكم الشرعي ويطابق بينهما بميزان الشرع. وعلماء الأصول كانوا على بصيرة بهذا حينما تناولوا أهلية الاجتهاد وحددوا معالمها ورسموا ضوابطها وقواعدها. والفقهاء كانوا على بينة به أيضاً واقفين على حدوده ملتزمين بقواعده. يؤكد ذلك ويصدقه ما نجده في اجتهاداتهم من رعاية المقاصد الشرعية في استنباط الأحكام وتنزيلها على محالها، وما نلحظه من بنائهم لكثير من هذه الأحكام على استصلاح ومراعاة العرف واعتبار المآل وسد الذرائع وغير ذلك مما يؤكد أنهم كانوا على قدر كبير من فقه واقعهم واستيعاب ما يَلُونَ الاجتهاد فيه من النوازل والوقائع التي جدت في حياتهم.

2- إغناء الجانب التطبيقي في الاجتهاد :

إن أصول الاجتهاد وقواعده لا يكون لها وزن إلا إذا ظهر لها أثر على واقع الحياة من تصرفات المكلفين والتزاماتهم ومعاملاتهم وسائر أقوالهم وأفعالهم التي يشملها الحكم الشرعي عند الفقهاء، فالاجتهاد الفقهي في جانبه النظري إنما يستمد مصداقيته وقيمته العلمية من التطبيقات التي يُنَزَّلُ فيها الحكم على محله تنزيلاً شرعياً يراعي مقصود الشرع وتحقيق مصالحه. وفي ظل العولمة يستطيع الفقه أن يقف على أمثلة كثيرة من التطبيقات الحياتية التي تصلح أن تكون مادة فقهية لإعمال أصول الاجتهاد وقواعده، وهذا الأمر تابع لسابقة ولازم له، أعني أن الفقيه إذا تمكن من فقه واقعه بزمانه ومكانه وإنسانه وحاله وسائر ما يدخل في مقومات واقعه ومعطياته المختلفة، فإن ذلك يكسبه لزوماً أن يكون على إطلاع بما يعج به الواقع المعاصر من الوقائع البسيطة والمركبة، والنوازل الصغرى والكبرى، والحوادث السهلة والمعقدة. وبقدر إطلاعه على ذلك يكون أقدر على اختيار اجتهاده وتجربة نظره الفقهي والاطمئنان إليه.

3. تمحيص الأقوال الفقهية وسير الاجتهادات المذهبية :

إذا كان الفقيه المعاصر يستطيع في ظل العولمة الحديثة أن يتمكن من فقه واقعه واستيعاب مستجداته، ويضطلع بما يزخر به من الأمثلة التطبيقية التي هي ميزان الاختبار وأساس التجربة، فإنه في ظل هذه العولمة أيضاً يستطيع أن يمحص ما بين يديه من تراث فقهي زاخر بأقوال الفقهاء على اختلافها، واجتهاداتهم على تنوع مذاهبها، ويستطيع أن يعرض ذلك للسبر والتقويم، فكثير من هذه الأقوال والاجتهادات المأثورة عن الفقهاء نجد في الواقع المعاصر ما يصلح تطبيقاً له ومورداً صالحاً لتنزيله عليه، بل حتى ما يدخل في هذه الأقوال والاجتهادات من افتراضات الفقهاء وتخيلاتهم الفقهية قد نجد له في ظل تقنيات العولمة الحديثة ما يجعل مستقرا في هذا الواقع المعاصر، أو يُحكمُ عليه بالاستحالة والامتناع في العادة، كمدة الحمل مثلاً التي كانوا يقدرون أكثرها بالسنين على اختلاف بينهم في ذلك.

4. الاستفادة النوعية من دواوين السنة ومصنفات الفقهاء :

لقد اتفق الفقهاء على أن من شروط الاجتهاد العلم بأحاديث الأحكام ومسائل الإجماع والخلاف عند الفقهاء، وقد كان المتقدمون يعتمدون في تحصيل ذلك على حفظ النصوص والمتون ورواية الآثار والمنقول، فضلاً عن اكتساب ملكة الفهم والنظر، فكان حفظ المأثور واستظهارُ المنقول هو المعول عليه في الاجتهاد وإعمال النظر الفقهي فيما يعرض على الفقهاء من النوازل، مستعينين في ذلك أيضاً بما استيسر لهم من الإطلاع على الكتب والنظر في المصنفات، ثم هدوا بعد كثرتها وتشعبها إلى وضع معاجم لها وفهارس وكشافات تيسر تناولها وتقرب أخذها وتفتح مغاليقها. ثم طورها المحدثون في ضوء ما استفادوه من مناهج المستشرقين وطرائقهم في البحث العلمي وتيسير مادته. واليوم في ظل العولمة وتوابعها ولواحقها، عرفت الاستفادة من التراث العلمي الإسلامي نقلة نوعية أصبح معها بالإمكان التحكمُ في المادة العلمية المراد قراءتُها وبناءُ البحث

عليها، والسرعة في إنجازها وإيجاد المطلوب فيها. لقد أصبح بإمكان الفقيه أن يقرأ أكثر ما يمكن من المقروء في أقل ما يمكن من الوقت، وأن يقرأ ما يشاء كيف يشاء، وأن يستخلص ما يشاء من المضامين الفقهية والنتائج العلمية مما يشاء، من مصادره ومظانه على كثرتها وتنوعها. وكل ذلك من شأنه أن ينشط الاجتهاد ويوسعَ ساحته، ويغني مادته، ويعمق منهاجه، ويسدد ميزانه.

المبحث الثاني : تقويم الاجتهاد الفقهي وتمحيص نتائجه

من المعلوم أن إعمال الاجتهاد مظنة الاختلاف، فكلما فتح الفقهاء باب الاجتهاد فيما جد من الحوادث والنوازل في زمانهم كانوا عرضة لأن يختلفوا فيما بينهم، لكنه اختلاف تنوع ورحمة وتوسعة على المسلمين إذا أقام على أسباب علمية تسوغه وتجعله معتبراً شرعاً، وبعض مسائل الخلاف يمكن رده إلى الوفاق إذا ضبطت الأسباب وحقق المناط فيها، كالاختلاف الناجم بين الفقهاء في مسألة ما عن كون بعضهم قد بلغه فيها حديث دون بعض، أو بلغهم جميعاً لكنه صح عند بعضهم دون بعض، أو علم بعضهم الحديث المنسوخ دون الناسخ، أو العام دون الخاص، أو المطلق دون المقيد، أو المعارض دون ما يعارضه مما هو أقوى وأثبت، أو غير ذلك مما لو تحقق به العلم لارتفع الخلاف وصار الأمر إلى وفاق. وفي ظل كلكل العولمة يستطيع الاجتهاد الفقهي المعاصر أن يستفيد عملياً في هذا الشأن من أمور كثيرة منها :

1. الوقوف على مسوغات الخلاف :

وذلك لأن كثرة القضايا واختلاف النوع الواحد منها في تنزيل الأحكام عليه باختلاف المكان والإنسان، يمكن الفقيه من تعميق النظر في شرعية الخلاف الفقهي وسبر أسبابه والتأكد من تسويغها إياه أو لا ؟ فالخلاف الفقهي حينما يلتفت إليه من جانبه النظري قد يبدو أن تداركه والخروج من دائرته أفضل من الإبقاء عليه، ولكن حينما يعرض ذلك على محك العمل ومعيار التطبيق تتضح

قيمته الفقهية وفائدته العلمية، فتتأكد مسوغاته، أو يثبت العكس فينكشف اختلافه وقيامه على شفا جرف هار.

2 ـ الوقوف على موجبات الوفاق :

في مقابل ما سبق للتطبيقات العديدة التي تعج بها الحياة المعاصرة مما تقذف به لجة العولمة أن تقف الفقيه على ما يتأتى منها أن يرتفع عنه الخلاف ويؤول إلى الوفاق، إما لكون الخلاف فيه لفظياً، أو لكون سبب الخلاف مما يمكن أن يزال، أو يكون محل النزاع غير محرر فيحرر، أو لإمكان الجمع بين قولي الخلاف، أو غير ذلك مما يكشفه النظر في القضايا وتمحيص التطبيقات...

3 ـ تيسير الاجتهاد الجماعي وإمكان عقد الإجماع :

أما الاجتهاد الجماعي فوسائله كثيرة وإمكاناته متوفرة، وملامحه موجودة فيما هو قائم من المؤسسات والمجامع الفقهية التي يمكن أن تعرف طريقها نحو تعميق عملها وتقويته وإحكامه إذا هي أحسنت الاستفادة من العولمة وخير ما هي له، وتوقت مضارها وشر ما هي له.

وأما إمكانية عقد الاجتماعات فأمر تابع للاجتهاد الجماعي ومتفرع عنه، فإذا أحسن الأصل أحسن الفرع، ومؤسسة الاجتهاد الجماعي عنها يمكن أن ينبثق حصول الاتفاق الفقهي وانعقاد إجماع الفقهاء.

غير أن العمل الفقهي في مؤسسة الاجتهاد الجماعي إذا كان يقتضي إشراك غير الفقهاء من الأطباء والصيادلة والاقتصاديين والقانونيين وغيرهم من المتخصصين لتقديم التصورات الكاملة عن أعيان المسائل المعروضة على أنظار المجتهدين، من خلال ما يقدمونه من أبحاث علمية دقيقة يستعين بها الفقهاء في استكمال النظر الفقهي الصحيح، واستنباط الحكم الشرعي بدقة وسلامة ـ إذا كان ذلك كذلك فإن تقرير الحكم الشرعي والإجماع عليه لا يمكن أن ينعقد إلا بالفقهاء المجتهدين، وكل من سواهم لا ينعقد بوفاقهم إجماع ولا يتحرم باختلافهم إجماع.

4. تسهيل التواصل بين المفتين والمستفتين والفقهاء والمتفقهين :

فوسائل العولمة وآلياتها الحديثة من شبكة الأنترنت، والفضائيات والاتصال المباشر على الهواء، والهاتف والفاكس وغيرها مما تقذف به العولمة الحديثة من شأنها أن تسهل عملية الإفتاء والاستفتاء، والتفقيه والتفقه، وإبلاغ الخطاب الفقهي وتلقيه. فإذا أحسن الفقهاء ذلك وأتقنوا عملهم فيه وجنبوه التعجل والاستخفاف والعبث كان أحرى أن يكون غنماً ومكسباً للفقه والفقهاء والمتفقهين وعامة المستفيدين.

وبعد،

فبذل الجهد واستغراق الوقت في البحث عن حكم العولمة واتخاذ الموقف منها أمر فات أوانه، وانصرف إبانه، والزمان لا ينتظر، فالماء قد طغى، والسيل طما، فالحكمة والسداد : صرف الطاقات فيما يستفاد منها مما يستفاد، والدفع بها إلى الأسلمة والرشاد. فعالمية الإسلام الربانية، أحرى بأن تدمر عولمة طاغوت البشرية.

عولمة الغرب وعالمية الإسلام :
دراسة مقارنة

العربي بوسلهام

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط

مقدمـــة

هنالك فرق كبير بين المصطلحين العالمية والعولمة، فالعولمة ليست العالمية رغم أنها ذات سمة عالمية و"العولمة" في الدلالة الاصطلاحية تتعدد معانيها، نظراً إلى إيديولوجية كل واحد يحاول أن يعطي تعريفاً موحداً لمصطلح "العولمة"، لأن هذه الأخيرة شكلت ظاهرة مستعصية يصعب إدراكها، لأنها تنطوي تحت لوائها : السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، فنجد "عولمة سياسية" و"عولمة اقتصادية" و"عولمة اجتماعية" و"عولمة ثقافية"... فكلها تتداخل فيما بينها ولا يمكن عزل واحدة منها عن الأخرى فمضمونها متشابك فيما بينها.

ويرى معظم الكتاب على أن هناك أربعة عناصر أساسية يعتقدون أنها أدت إلى بروز تيار "العولمة" وهي :

- تحرير التجارة الدولية ؛
- تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة ؛
- الثورة المعرفية ؛
- تعاظم دور الشركات متعددة الجنسيات.

لقد أخذت ظاهرة "العولمة" متسعاً من الجدل على الصعيد العالمي، فكان صداها مؤدياً إلى تشكل موقفين أساسيين :

ـ **موقف أول** : يرى "العولمة" عبارة عن استراتيجية أمريكية وغربية تسعى إلى تجديد المرحلة الإمبريالية، أو هي نوع من الاستمرار لها ولذلك لا مناص من الوقوف في وجهها ومقاومتها.

ـ **موقف ثاني** : يرى بأن "العولمة" واقعاً موضوعياً متحققاً كالقدر وليس لأمريكا أو لسواها أي دور فيها، ولهذا يجب التعامل معها بوصفها سيرورة موضوعية، والدخول فيها باعتبارها فضاءً مفتوحاً على النظام الكوني.

وإذا كانت "العولمة" واقعاً جارفاً فإن شريعتنا وما تحمله من مرونة وقدرة عجيبة على التكيف ودعوتها إلى الصبر والتبصر، فإنها لا تمنع من التجاوب مع الجديد وتوظيفه من خلال جهد إنساني عامل ومسؤول لخدمة القيم العليا والمصالح الكبيرة للأفراد والأمة، على ضوء فهم المقاصد العامة للتشريع. فلنا أن نتعامل مع الواقع الحضاري في عصر "العولمة" وفي غيره بثقة في قدرتنا المستمدة من عقيدتنا على توظيف الإيجابيات ومحاولة التجنب للسلبيات.

وإن الإسلام اتسم بالعالمية تخرج البشرية من الظلمات إلى النور ومن الظلم إلى العدالة ومن التخلف إلى التقدم، ولم يكن حكراً على نوع من البشر دون غيرهم. فعالمية الإسلام، تفتح على العالم، على الثقافات الأخرى وتحتفظ للشعوب بخصائصهم في ظل ثقافتنا العامة، بخلاف "العولمة" فهي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي في محل الصراع الإديولوجي ؛ ولعل من أكثر الآيات القرآنية التي عبرت عن رؤية الإسلام في هذا المجال قوله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله خبير عليم﴾[1] هذه الآية تؤسس للعلاقات بين الأمم والحضارات

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

على قاعدة التعارف "لتعارفوا" وليس على أساس النزاع أو الصدام أو الإلغاء، ومن غير أن تبدأ الحضارات من التعارف لن تتخلص من رواسب الصدام، لتصل إلى حوار الحضارات.

لقد انطلقت العالمية الإسلامية من منطلقات فكرية وعملية قوية، مما جعلها تلقى القبول لدى الأهالي في البلدان المفتوحة بخلاف العولمة الغربية، وهذا ما سأعالجه في مداخلتي.

العالمية والعولمة : تعريف وتمييز

هناك فرق كبير بين المصطلحين العالمية والعولمة، فالعولمة ليست العالمية رغم أنها ذات سمة عالمية كما سبق ذكره.

فالمصطلح الأول يعني أن أبناء هذا العالم بمختلف قبائله وشعوبه ولغاته ومِلله ونحله، يعيشون على هذه الأرض ؛ فلابد أن يتفاهموا فيما بينهم، تمهيداً للتعاون الدائم على خير الجميع، ولا مانع من أن يأخذ بعضهم من بعض. ولا يجوز أن يفرض بعضهم على بعض لغته أو دينه أو مبادئه أو موازينه. فالاختلاف في هذا الإطار طبيعي جداً، والتعاون ضروري أبداً، لمنع الصدام والحروب والعدوان.

وهذه العملية العالمية قد تسمى بالتثاقف الحضاري بين الشعوب والأمم. وهي واقع البشرية منذ أقدم العصور إلى اليوم، فاللغات تلاحقت والمجتمعات تعاونت والحضارات عبرت من مكان إلى مكان[2].

والحروب والمظالم التي قامت ويمكن أن تقوم بين أبناء البشرية، تستنكرها العقول السليمة، ومبادئ الأديان الحقة، والمصالح المشتركة، لأن سعادة البشرية مطلوبة لذاتها، والتعاون فيما بينها على الخير من أعظم الفضائل التي تقرها وتشجع عليها القيم الفاضلة، التي أجمع عليها البشر في هذه الحياة.

---

(2) "العالمية والعولمة"، محمد سليم، نقلا عن موقع إسلام أون لاين بتصرف.

وأوضح مثال على ذلك الإسلام. فعندما جاء خاتماً للأديان وهداية للعالمين، دعا الناس إلى عقيدته وشريعته وقيمه الأخلاقية، من خلال الدعوة الوادعة، والجدال الحسن، دون إكراه لأحد، ومعترفاً بواقع الخلاف الموجود في الأرض، منطلقاً من القرآن الذي يقول : ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بها كنتم فيه تختلفون﴾[3] وقوله تعالى : ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[4].

وقوله : ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾[5]، وقوله : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[6].

وبنيت هذه التوجيهات الربانية على قوله تعالى : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ولم يقل رب المسلمين فحسب. لماذا ؟!

لأن هذه الدار دار عمل للجميع وليست دار جزاء، وإنما الجزاء يكون في الآخرة.

قال تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[7].

وهذا تاريخ البشرية عامة، وتاريخ الإسلام خاصة، لم يرد فيه دليل على أن المسلمين رسموا للبشرية طريقاً واحداً ووجهة واحدة وحكماً واحداً ونظاماً واحداً وعالماً واحداً بقيادة واحدة بالإجبار والإكراه.

---

(3) سورة المائدة، الآية 48.

(4) سورة البقرة، الآية 256.

(5) سورة آل عمران، الآية 20.

(6) سورة الممتحنة، الآية 8.

(7) سورة آل عمران، الآية 85.

بل اعترفوا كما ذكرنا بواقع الأديان واللغات والقوميات، عاملوها معاملة كريمة، بلا خداع ولا سفه ولا طعن من الخلف. ولذلك عاش في المجتمع الإسلامي اليهودي والنصراني والصابئي والمجوسي وسائر أهل الشرك بأمان واطمئنان[8].

وأما الأمم التي كانت تعيش خارج العالم الإسلامي، فقد عقدت الدولة الإسلامية معها مواثيق ومعاهدات في قضايا الحياة المتنوعة. ومن الممكن مراجعة ذلك في الكتب التي تتحدث عن العلاقات الدولية في التشريع الإسلامي[9][10].

أما العولمة التي هي الترجمة العربية للكلمة الانجليزية Globalisation فهي مصطلح يعني جعل العالم واحداً، موجهاً توجيهاً واحداً، في إطار حضارة واحدة ولذلك قد تسمى الكونية أو الكوكبة[11].

وأما "العولمة" في الدلالة الاصطلاحية فتتعدد معانيها بتعدد المفهوم، نظراً إلى إيديولوجية كل واحد يحاول أن يعطي تعريفاً لها، ولهذا فتعريف العولمة اصطلاحياً تتضارب فيه الآراء والفهوم. ولا يمكن لنا إيجاد تعريف موحد لمصطلح العولمة، لأن هذه الأخيرة شكلت ظاهرة مستعصية يصعب إدراكها، لأنها تطوي تحت لوائها : السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة. فنجد "عولمة سياسية" و"عولمة اقتصادية" و"عولمة ثقافية"...

(8) يراجع في سبيل إثبات هذه الحقيقة كتاب **"الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"** لآدم متز، وكتاب **"الدعوة إلى الإسلام"** لأرنولد توينبي، وكتاب **"ملهبية الحضارة الإسلامية"** لمحسن عبد الحميد.

(9) راجع على سبيل المثال **"أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام"** للدكتور عبد الكريم زيدان، و**"الإسلام والعلاقات الدولية"** لعلي علي منصور، و**"العلاقات الدولية في الإسلام"** للدكتور محمد عبد الله دراز.

(10) **"العولمة من المنظور الإسلامي"** د. محسن عبد الحميد، ص. 7.

(11) مقاربتان عربيتان للعولمة : ياسر عبد الجواد مجلة **المستقبل العربي**، ص. 2 عدد 252 شباط 2000م.

فكلها تتداخل فيما بينها ولا يمكن عزل واحدة منها عن الأخرى، فمضمونها متشابك فيما بينها وإذا عدنا إلى هذه الدلالة الاصطلاحية نجد الكثير من التعريفات، فلنرصد بعضا منها :

- **منظور صندوق النقد الدولي** : "العولمة تعني نمو الروابط الاقتصادية بين مختلف دول العالم، على إثر نمو حجم ونوعية المبادلات عبر الحدود للبضائع والخدمات، وكذلك أيضا تيارات رؤوس الأموال وفي نفس الوقت الانتشار العام والسريع للتكنولوجيا"[12].

- **منظور منظمة التجارة العالمية** : جاء في تصريح المدير السابق للمنظمة "روناتو روبير" أمام قمة لرؤساء دول "مركزور" لأمريكا اللاتينية، عقدت بمدينة اسونسيون عاصمة البرغواي في يوليوز 1997م : "إن العولمة لا تعني فقط تحرير التجارة وتنقل الرساميل والاتصالات والتكنولوجيا وإنما تعني التقارب المتزايد في المصالح والأهداف والتطلعات والآمال وكذا في تماثل التصور والإدراك والرؤية نحو العالم". ويضيف التصريح قائلاً : "إن العولمة تعتبر مدخلاً رئيسياً لحل مشكل التوزيع على الصعيد العالمي في إطار الاعتماد المتبادل بين الدول"[13].

- **منظور رؤساء دول وحكومات الديموقراطية الأكثر تصنيعاً** : المنعقد في مدينة ليون الفرنسية سنة 1996م. "إن النمو الاقتصادي والتقدم في عالمنا المتداخل، مرتبطان أشد ما يكون الارتباط بمسلسل العولمة : العولمة معطى بالغ الأهمية بالنسبة لمستقبل بلداننا ومستقبل الكرة الأرضية بأكملها. فهي إيجابية بالنسبة لدولنا وبالنسبة لمستقبل الكرة الأرضية جمعاء، إيجابياتها متعددة : نمو الاستثمارات والمبادلات وانفتاح الجهات الأكثر كثافة للتجارة الدولية وهي تشكل فرصة بالنسبة للعديد من دول العالم لتحسين مستوى عيشهم والانتشار السريع بالنسبة للمعلومات والإبداع التكنولوجي، ومضاعفة تشغيل ذوي الكفاءات العليا، لذلك

---

(12) أستاذ "عباس برادة السني" كتاب "**العولمة الاقتصادية**"، ص ص. 15-16-17 : "**العولمة والإسلام**" دراسة وصفية تحليلية للأستاذ عبد السلام أقنين، ص. 12، ط. 2001، المغرب..

(13) "**العولمة والإسلام**"، أستاذ عبد السلام أقنين، ص. 12.

فالعولمة تعني الزيادة في الخيرات العالمية والرفاهية، ومن ثم فنحن مقتنعون بأن هذا المسلسل هو باعث للأمل بالنسبة للمستقبل ؛ فالتاريخ يبين بوضوح أن تحسين مستوى العيش مرتبط بالقدرة على استغلال الانفتاح التجاري، والاستثمارات الدولية ثم التقدم التقني". ولكن ومع ذلك يضيف التصريح قائلا : "إن العولمة سلبيات أيضا، للاستفادة منها أي من العولمة، فالدول مطالبة بالتأقلم مع المنافسة كما أن العولمة يمكنها أن تعمق الخلل داخل الدول الفقيرة، كما تحمل إمكانية التهميش بالنسبة لبعض الجهات في العالم، لذلك فالإصلاحات العميقة مطلوبة ثم إن المالية، يمكن أن تشكل مصدر عدم استقرار عالمي"[14].

ويقول الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي عن العولمة : "نظام يمكن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر وحرية السوق"[15].

ويثبت هانس بيتر مارتن وهار الدشومان، صاحبا كتاب "فخ العولمة" إن العولمة هي إيصال البشرية إلى نمط واحد في التعبير والأكل والملبس والعادات والتقاليد[16].

ويقول "جيمز روزانو"، أحد علماء السياسة الأمركيين عن العولمة : "إنها العلاقة بين مستويات متعددة لتحليل الاقتصاد والسياسة والثقافة والإيديولوجيا، وتشمل إعادة الإنتاج وتداخل الصناعات عبر الحدود وانتشار أسواق التمويل وتماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول نتيجة الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة"[17].

---

(14) الأستاذ يحي اليحياوي" كتاب "العولمة أية عولمة ؟" ص ص. 18-19 : كتاب "العولمة والإسلام".

(15) "العولمة المزعومة ـ الواقع ـ الجذور ـ البدائل"، روجيه غارودي، ص. 17 تعريب الدكتور محمد السبيطلي، دار الشوكاني للنشر والتوزيع، صنعاء 1998م.

(16) "فخ العولمة" ـ هانس بيتر مارتين ـ هار الدشومان، ص ص. 55-58، ت : عدنان عباس على مراجعة وتقديم أ.د. رمزي زكي، تشرين الأول 1998 عالم المعرفة ع. 238.

(17) "العولمة بين النظم التكنولوجية الحديثة"، نعيمة شومان، ص. 40، ط. 1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1416هـ - 1998م.

ويقول الدكتور عباس الجراري : "إن العولمة نظام يسعى إلى فرض خططه المالية والاقتصادية والتسويقية، ومن خلال ذلك فرض أفكاره ومناهجه، ثم بعد هذا فرض قيمه وأنماط سلوكه، ليصل في النهاية إلى فرض هيمنته وسيادته، هو بهذا يشبه الاستعمار إن لم يكن يمثل أعلى درجاته ومراحله"[18].

ويميز الدكتور محمد عابد الجابري بين "العولمة" والعالمية ويقول UNIVERSALITE العولمة إرادة الهيمنة، وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي أما "العالمية" فهي طموح إلى الارتقاء بالخصوصية إلى مستوى عالمي : العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني... إن العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والصفاء، في التعارف والحوار والتلاقح. إنها طريقة "الأنا" للتعامل مع الآخر بوصفه "أنا ثانية" طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة، أما العولمة فهي طموح، بل إرادة لاختراق "الآخر" وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من "العالم". العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة هي اختراق لها وتمييع[19].

ويقول الدكتور سيار الجميل : "إنها عملية اختراق كبرى للإنسان وتفكيره، وللذهنيات وتراكيبها، وللمجتمعات وأنساقها، وللدول وكياناتها، وللجغرافية ومجالاتها، وللاقتصاديات وحركاتها وللثقافات وهويتها، وللإعلاميات ومدياتها"[20].

ويقول رئيس وزراء ماليزيا السابق : "مهاتير محمد" الذي عانت بلاده من آثار العولمة في السنوات الأخيرة : "إن العالم المعولم لن يكون أكثر عدلاً ومساواة، وإنما سيخضع للدول القوية المهيمنة، وكما أدى انهيار الحرب البادرة إلى موت وتدمير كثير من الناس، فإن العولمة يمكن أن تفعل الشيء نفسه، ربما أكثر من

---

(18) **"هويتنا والعولمة"** : عباس الجراري، ص. 33 مطبعة الأمنية، الرباط.

(19) **"العولمة الهوية الثقافية"** د. محمد عابد الجابري، ص. 17.

(20) **"العولمة والمستقبل- استراتيجية تفكير"** سيار الجميل، ص. 32 الأهلية للنشر والتوزيع، ط. 1، عمان.

ذلك، في عالم معولم سيصبح بإمكان الدول الغنية المهيمنة فرض إرادتها على الباقين الذين لن تكون حالهم أفضل مما كانت عليه عندما كانوا مستعمرين من قبل أولئك الأغنياء"[21].

فالعولمة من خلال ما يظهر من دعوتها حتى اليوم، ومن خلال مفاهيمها التي سقناها لبعض المفكرين الغربيين وعرب ومسلمين أنها ترفض تعدد الحضارات واختلاف الإيديولوجيات اقتصادية كانت أم ثقافية أم سياسية، بل أنها تحاول فرض هيمنة على العالم وبالأخص العالم الإسلامي، في جميع المجالات وإلغاء خصوصياته، فالعولمة في أجلي صورها اليوم تعني تغريب العالم أو بعبارة أخرى أمركته ؛ إنها فرض لهيمنة القطب الواحد الذي يعامل باقي الأطراف معاملة المستكبر للمستضعف. فالعولمة عدوان على سائر الثقافات، وهدر للسيادة الثقافية، وضرب هوية الشعوب الوطنية، فهي غول يبتلع الانتماءات الوطنية وتبغي القضاء على الخصوصيات الحضارية والقيم المحلية وانتزاع الهويات الثقافية.

إن العلولمة جاءت بشكل واضح لتكرس كل تفاعلاتها لصالح الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، ولأن مفهوم العولمة بداية له علاقة وطيدة بالاقتصاد والرأسمالية، فهي تعني تعميم نموذج الحضارة الغربية ـ خاصة الأمريكية ـ وأنماطها الفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية على العالم كله.

آثار العولمة على الإنسان إيجاباً وسلباً

- يرى مؤيدو العولمة أن العولمة :

ـ تقدم إمكانية لا مثيل لها للملايير من البشر للخروج من التخلف،
ـ وتفتح آفاقاً واسعة أمام المصالح الاقتصادية،
ـ وتنشط الحركة الدولية لرؤوس الأموال، وتسريع انتشار التقنيات،

---

(21) من محاضرة ألقاها في كوالا لامبور في 24 يوليوز 1996 نقلا عن "الدين والعولمة" للدكتور أحمد بن عثمان التويجري ص. 19 من مجلة "الإسلام اليوم"، من عدد 16-17 السنة 17/1421هـ/2000م.

- العولمة تؤدي إلى ترابط المصالح والأهداف،
- العولمة تؤدي إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وزيادة خيرات ورفاهية العالم.

• أما الرافضون للعولمة فيرون أن :

- العولمة تعمق الفجوة بين الشمال الغني والجنوب الفقير،
- وصفات صندوق النقد الدولي أدت إلى ارتفاع الفقر،
- العولمة تسبب ارتفاع الهوة بين أطفال الأغنياء وأطفال الفقراء،
- العولمة تقصي البعد الإنساني،
- العولمة تسبب البطالة،
- العولمة تعمل على تلويث البيئة،
- العولمة تعمل على قتل الصناعات الناشئة،
- العولمة تعمل على تقليص الموارد الجمركية للدول الضعيفة،
- العولمة تهدد الثقافات المحلية(22).

ودراسة مؤلف "**فخ العولمة**" تثبت الآثار السلبية للعولمة الآتية :

1 - زيادة البطالة.
2 - انخفاض الأجور.
3 - تدهور مستوى المعيشة.
4 - تقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة.
5 - إطلاق آليات السوق.
6 - ابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وقصر دورها في حراسة النظام.
7 - تفاقم التفاوت في توزيع الثروة بين المواطنين(23).

---

(22) "**العولمة والإسلام**"، عبد السلام أقنين، ص. 47-48/ط. 2001 المغرب.

(23) "**العولمة من المنظور الإسلامي**"، محسن عبد الحميد، ص. 11.

وخطر العولمة يتمثل في محاولات الغرب تحت مظلة الأمم المتحدة أن تفرض نموذجها الاجتماعي، وأن تفرض على العالم قيم المجتمع الغربي المختلفة في مجال الأسرة والمرأة والطفل من خلال مؤتمرات إقليمية ولجان المتابعة لتوصيات هذه المؤتمرات المنتشرة، هذه التوصيات قد تصل إلى ما يشبه القرارات الملزمة.

وعلى أرض الواقع وكنتيجة لعولمة القيم والأخلاق فنحن نشاهد ما يلي :

1 ـ المشكلات الداخلية مثل التفكك الأسري ـ المخدرات ـ الطبقية : 60 مليون في أمريكا تحت خط الفقر، وفي الاتحاد الأوروبي 50 مليون، وفي أمريكا 1% من الناس يملكون 4% من الثروة.

2 ـ الأمراض الناتجة عن التحلل الأخلاقي : (الايذز) تشير تقديرات منظمة الصحة العالمية (الغرب له نصيب كبير من هذه الأرقام) :

- حتى عام 2000 هناك 40 مليون مصاب بالإيذز والنساء أكثر إصابة بهذا المرض.
- 50 مليون حالة جديدة من حالات الإصابة بأمراض انتقلت عن طريق الاتصال الجنسي.

3 ـ الفوضى الأخلاقية : وهي من مظاهر القصور في مجتمعات الحضارة المعاصرة، ومن أمثلة ذلك :

- في بعض الدول الأوروبية 65% من النساء العاملات يتعرضن للتحرش الجنسي في مكان العمل وهذا بحسب مسؤولية التوظيف والسياسة الاجتماعية في المجلس الأوروبي في بروكسيل.
- حوالي 15% من النساء في أمريكا اغتصبن أو تعرضن لمحاولة اغتصاب وهذا بحسب دراسة أعدت بتكليف من وزارة العدل والصحة والشؤون الاجتماعية في أمريكا.

- كثرة التحرش الجنسي مؤخراً في اليابان حتى بات من الضروري وضع قانون وطني لمكافحته، وذلك حسب رأي خبيرة في القضايا القانونية في الحزب الديموقراطي.

ويؤكد الدكتور عمارة على خطورة العولمة الاجتماعية بقوله : "إنه إذا كانت العولمة العسكرية هي أداة التأييد للعولمة الاقتصادية والتشريعية، فإن عولمة القيم والثقافة هي سبيل التأييد لذوبان الحضارات غير الغربية في النموذج الحضاري الغربي، فاحتلال العقل كان دائماً وأبداً السبيل لتأييد احتلال الأرض ونهب الثروة دونما حاجة إلى نفقات القواعد العسكرية وتكاليف الجنود[24] ولاشك أن ابن خلدون قد تفطن لأهمية القيم الأخلاقية في حياة الإنسان ولذلك قال : "وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة بحيث يتوقع من العولمة أن تمسخ الإنسانية وتقولبها في نمط ثقافي يفقد ما في الحضارات الإنسانية وقيمها من غنى وتنوع[25].

والعولمة الثقافية فهي تهدد ثقافات الشعوب الأخرى، كما أنها تتدخل مباشرة في صياغة الفكر والسلوك الإنساني بوسائل متعددة، وقد قيل "من ضاعت ثقافته ضاعت هويته أو ضاع استقلاله".

ما من نظام اقتصادي إلا ويجب أن يحمل ثقافة تدعمه وتعززه، فهو لا يستطيع أن يعتمد على بندقية الشرطي الذي يحرسه فقط. ولا على النظام السياسي الذي يحميه فقط، وإنما يجب أن تعزز قيمه ومبادئه، وتصبح ذات شيوع وسطوة وقبول عام، وهنا تأتي الثقافة لتقوم بدورها إلى جانب الشرطي والسياسي في تكريس النظام الاقتصادي المعني.

ونستعرض معاً كلام أحد الباحثين الغربيين في كتابه **"تغريب العالم"** ينقل لنا كيف تتم عملية الغزو الثقافي في بلدان العالم يقول : "ينطلق فيض ثقافي من بلدان

(24) د. عمارة **"عولمة القيم الغربية"**، نقلا عن موقع الشبكة الإسلامية.

(25) **"عولمة القيم والأخلاق"**، د. عمار طالبي، موضوع نشر بالبيان، عدد 2002/10، 22.

المركز، ليجتاح الكرة الأرضية، يتدفق على شكل صورة... كلمات... قيم أخلاقية، قواعد قانونية... مصطلحات سياسية... معايير... كفاءة... ينطلق كل ذلك ليجتاح بلدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام المتمثل في إذاعات، وتلفزيونات، وأفلام، وكتب، وأسطوانات فيديو، وأطباق استقبال فضائية ينطلق عبر سوق المعلومات التي تحتكرها الوكالات العالمية الأربع، أسوشيتد بريس، ويونايتد بريس (الولايات المتحدة)، ورويتز (البريطانية)، وفرانس بريس (فرنسا)، وتسيطر الولايات المتحدة على 60% من تدفق هذه المعلومات.

هذا الفيض من المعلومات يشكل رغبات وحاجات المستهلكين ـ أو بتعبير آخر : الأسرى السلبيين ـ يشكل أنواع سلوكهم، وعقلياتهم، ومناهج تعليمهم، وأنماط حياتهم، وبذلك تذوب الهويات الذاتية في هذا الخضم من أنواع سلوكهم، وعقلياتهم، لأن مواد الغزو تصنع في مصانع الغرب وفق معاييره ومواصفاته المعينة[26].

ومن المؤكد أن المستهدف خاصة بهذا الغزو الثقافي هم المسلمون : العرب منهم خاصة والمسلمون عامة وذلك لعدة عوامل :

1 ـ ما تملكه بلادهم من مواد أولية هائلة يأتي على رأسها النفط والغاز وثروات طبيعية أخرى.

2 ـ ما ثبت لهم عبر مراكز بحوثهم وجامعاتهم ومستشرقيهم أن هذه الأمة مستعصية على الهزيمة إذا حافظت على هويتها الإسلامية، ومن ثم فالطريق الوحيد هو القضاء على تفرد شخصيتها وإلغاء دينها الذي يبعث فيها الثورة والرفض لكل أشكال الاحتلال والسيطرة.

• ولعل أبرز مخاطر العولمة التي تهدد البشرية جمعاء :

(26) ندوة : "هويتنا الإسلامية"، الشيخ محمد بن إسماعيل، مجلة البيان، العدد 129، ص. 46.

1ـ التلوث البيئي

لم يعد سراً أن الأرض نفسها قد أصبحت أكبر ضحايا عالم اليوم، وأن مستقبلها كوعاء للبشرية يعتمد على تغيير جذري في نمط حياة الإنسان والمجتمعات بدرجات متفاوتة. وقد دفع الوعي بهذا الخطر لانعقاد عدة مؤتمرات عالمية لعل أشهرها مؤتمر ريو في البرازيل عام 1990م. تصدرت الأمم المتحدة مهام رعاية البيئة وقد أفلحت في عقد اتفاقيات عالمية لدرء أخطار التدهور البيئي. وبالرغم من الإقرار بأن للدول والأفراد أدواراً هامة في معالجة إساءة استخدام البيئة إلا أن هذه المهمة تتطلب تضافر الجهود العالمية بشتى جوانبها.

وربما تمثل ظاهرة إزالة الغابات الطبيعية والأعشاب من أعظم الأخطار، مع عدم التعويض بزراعة أشجار محلها بل وإن الأرض التي كانت تغطيها الغابات وأحيلت إلى مزارع قد تقلصت مساهمتها بالطبيعة قياساً بالغلاف الغابوي. ويعتقد معظم علماء البيئة أن لهذا دوراً أساسياً في تغيير الطقس العالمي وانفجار الكوارث الطبيعية التي لم تقتصر على الدول الصغيرة. وقد ساهم علماء الجغرافيا بدراسة ظاهرة النينو وأضافوا هذا المفهوم للقاموس العالمي لنعي الظروف الطقسية المتطرفة ؛ ويظهر ذلك في ارتفاع درجات الحرارة والبرد ومعدلات الأمطار والفيضانات، وقد يؤدي إفساد البيئة إلى الزلازل ومخاطر أخرى يصعب على البشرية التنبؤ بها والسيطرة عليها.

لقد كثر الحديث أخيراً في الغرب عن آثار إفساد البيئة، مثل : "طبقة الأزون" التي تحافظ على حرارة الأرض الطبيعية وتعمل على حجب الأشعة الشمسية الضارة، فهذه أيضا قد تأثرت بالإفرازات الغازية التي تبعثها المصانع ومحركات السيارات. وتبين دراسات الطب ازدياداً مضطرباً في حالات السرطان، خاصة سرطان الجلد، وأمراض العين وتعتيم الرؤية، نتيجة الفوهة التي أحدثت في طبقة الأزون، وهذه المشكلة تتطلب تضافر الجهود العلمية والتخطيط العالمي وقد انعكس ذلك في المناشدة بتغيير تصميم المصانع وتخفيض استهلاك الطاقة

الضارة بالبيئة، وحديثاً يتحدث البعض في الدول المتقدمة عن ضرورة صنع سيارات لا تستخدم الوقود الضار بالبيئة (وتتحرك بواسطة الطاقة الشمسية أو الماء عوضا عن استخدام البترول).

ولا يمكننا استيعاب ضخامة الخطر البيئي إلا بإيرادنا لسيناريوهات ثلاثة :
ـ حسب معلومات معهد الموارد العالمية بواشنطن ـ لحالة البيئة في الأعوام 2030م و2070م ما لم تكف الدول، وخاصة الصناعية، عن المبالغة في استخدام الطاقة وتبديدها. وتقوم السيناريوهات على افتراضات التغيير التكنولوجي الذي نشهده اليوم والنمو الاقتصادي وتطور نظام الطاقة العالمية. وفي هذا النموذج فإن الدول لا تشرع السياسات للتقليل من انبعاث غاز ثاني أوكسيد الكاربون ولا توفر سوى الضئيل من الدعم لرفع كفاءة الطاقة وأبحاث الطاقة الشمسية والتنمية.

والنتيجة هي أننا بحلول عام 2030م ترتفع السخونة العالمية إلى 1.6 - 4.7 سنتغريد (2.9 ـ 8.5 فهرنهايت). أما النتيجة الأسوأ، وهذه يتوقع حدوثها في حال تشجيع استعمال الفحم ومشتقات الوقود بالإضافة إلى زيادة أنشطة إزالة الغابات المدارية، فهي أن كوكب الأرض سيواجه ارتفاعاً في درجة الحرارة تتراوح ما بين 2.3 ـ 7.0 درجة ستنغريد (4.4 ـ 12.6 فهرنهايت) في عام 2030م وهي أرقام مدهلة حقاً. أما بحلول عام 2070م فيؤكد السيناريو أن الكوكب سوف يشهد ارتفاعاً في درجة الحرارة ما يقارب 17 درجة سنتغريد أو 30 درجة فهرنهايت.

هذا السيناريو يستدعي تضافر الجهود العالمية لترشيد استعمال الطاقة والسعي لتقليل انبعاث الغازات الضارة بالبيئة لحفظ توازن تركيبة الغلاف الجوي.

وصدق الله العظيم حين قال تعالى : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر، بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[27].

(27) سورة الروم، الآية 41.

2ـ الأمراض المعدية

يعتبر عام 1976م نقطة هامة في تاريخ البشرية وحربها ضد الأمراض المعدية. ففي ذلك العام تم استئصال مرض الجدري من العالم تماماً. تتلخص هذه التجربة في قيام منظمة الصحة العالمية بتوفير وسائل البحث والمعلومات للبحث عن العلاج وإقناع جميع الدول بالتعاون لإنجاح المشروع. هذا وقاد المشروع ستة خبراء فقط أقاموا في جنيف لتنسيق الجهود ولعبت كل دولة دورها داخلياً، ربما يقول البعض أن مرض الجدري يختلف عن الأمراض الفتاكة الأخرى وإن علاج هذه الأخيرة أكثر صعوبة منه، ولكن الدرس ليس في سهولة العلاج بل في تضافر الجهود عالمياً وتكليلها بالنجاح.

أما عالم اليوم فقد يختلف كثيراً عما هو عليه قبل عقدين من الزمان حيث تكثفت الحركة الآن وتطورت وسائل النقل. هذا بالطبع يؤدي إلى سرعة انتشار للأمراض المعدية وكثير منها يتصف اليوم بالعالمية، وأوضح مثال هنا هو مرض نقص المناعة المكتسبة الأيدز، الذي تتطلب مكافحته جهداً عالمياً.

ومن الغرابة أن مرض نقص المناعة المكتسبة أصبح الهاجس الأول في كثير من الدول رغم أن ضحاياه يقلون كثيراً مقارنة بأمراض معدية أخرى مثل الملاريا، والإسهال، والسل وغيرها. ويكمن السبب، جزئياً على الأقل، في أن مرض نقص المناعة المكتسبة يهدد الأغنياء والفقراء في العالم على حد سواء في حين أن الأمراض الأخرى تقتصر على الدول الفقيرة في العالم وخاصة على الطبقات المستضعفة. إن ما يهمنا هنا عالمية خطر الأمراض المعدية في عالم اليوم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدول المتقدمة تحتكر صناعة الأدوية التي تقلل من الآلام عند الإصابة بالأيدز ليصبح هذا الدواء في متناول الأغنياء، أما الضعفاء فيتخبطون في آلامهم عند الإصابة به إلى أن يموتوا. فلو سمحت للدول الأخرى بصناعته لخفت تكلفته على الفقراء. غير أن المتقدمين من الأوروبيين يرغبون في الربح فقط لهم لا يريدون شريكا معهم.

3 ـ الأحياء المهددة بالانقراض

لقد تنبه العالم أخيراً إلى أن نمط استغلال الموارد الطبيعية الحالي قد أدى إلى انقراض عدد كبير من الكائنات الحية، حيوانات كانت أم نباتات أم حشرات. وبلاشك فإن هذا الفقد خسران لابد من إيقافه. وينطبق هذا على الكائنات المنقرضة التي لم تكتشف فوائدها بعد. والدعوة إلى التصدي للأخطار على الحيوان والنبات وغيرها من الكائنات ليست حكراً على علماء البيئة إذ أن علماء الدين أيضاً يشاركون في هذا الرأي. فالمسلمون مثلاً يعتقدون أن هذه المخلوقات لم تخلق عبثاً، وإنها تساهم في خير البشرية وإن خفي عنا ذلك. ولذلك ينبغي بذل قصارى الجهد في الحفاظ عليها ما أمكن والتعايش معها.

4 ـ التسلح

لاشك أن انتشار الأسلحة بشقيها التقليدي والذري وأحكامها الخفيفة والثقيلة من أكبر كوابيس هذا القرن. لقد بينت التقديرات بأن حوالي تسعين في المائة من ضحايا انتشار الأسلحة هم المدنيين العزل. ولكننا الآن مهددون بانتشار الأسلحة الكيماوية التي تؤدي قصدا أو سهوا إلى إفناء أهل الكوكب. تقول الصحائف الغربية أن ما يعادل 4.50% من الأسلحة التي أنتجتها الدول التي كونت جمهورية روسيا السابقة تعتبر مفقودة ولا يعرف لها أثر. ومما يزيد من قلق البشرية احتمال عزو ذلك إلى أخطاء في إحصائيات الدول المعنية إذ أن قنبلة واحدة من هذا النوع تكفي لهلاك الملايين إن لم نقل البلايين من البشرية. ونسبة التسلح يأتي في معظمه نتيجة لفساد العلاقات الدولية وفقدان الثقة بين القوميات المختلفة فقد أصبح حتميا أن تفوق الحلول مستوى الدولة المنفردة.

ورغم الاتفاقيات الدولية للحد من انتشار الأسلحة الكيماوية (المشار إليها بأسلحة الدمار الشامل) فلا تزال العديد من الدول تسعى في الخفاء لاقتنائها، الدولة الوحيدة التي سارعت لتخفيض تسليحها هي جنوب إفريقيا التي تستحق الاطراء لتخليها عن برنامجها النووي دون المتاجرة العالمية بذلك، وقد أصاب

الرئيس نلسون مانديلا في طرحه السؤال لمن يملكون السلاح النووي الذي بمقدوره إفناء البشرية جمعاء لماذا يقتني هؤلاء هذا السلاح ؟

5 ـ الجريمة العالمية

لسنا هنا بصدد الحديث عن الجريمة التي قد تحدث داخل الحيز القومي ولكن الإشارة لبعضها قد تفيد لأنها أساس ما يحدث ويتخطى الحدود القومية للدول. ولذلك فإن تفشي الجريمة في أي بقعة في الأرض قد يكون البادرة لتعميم ما قد يهدد من يقطنون خارج الحدود القومية. ولعله يجوز لنا أن نلتفت إلى أمريكا التي تفتخر بديمقراطيتها وقبول خيار الأغلبية ولكنها في ذات الحين تفوق العالم في مجال الجريمة. يقول الكاتب "باومان" أن أمريكا تقود العالم في مجال الجريمة، حيث أن نسبة 2% من الشعب الأمريكي بصدد الامتثان للإجراءات القانونية، فهم إما قابعون في السجون أو تحت إجراءات "حسن السلوك". أما الكاتبان "هانز بيتر مارتن" و"هرالد شومان" فيقولان أن الجريمة في أمريكا قد استفحلت وأصبحت كالوباء العام.

فمقاطعة كاليفورنيا التي تفاخر بقوتها الاقتصادية السابعة في العالم قد فاق إنفاقها على السجون ما تخصصه لميزانية التعليم يقول الكاتبان : "إن من السخرية أن الأغنياء أيضا يعيشون في سجون من صنعهم حيث أن ما يراوح الثمانية والعشرين مليون أمريكي آثروا السكن في مساكن محروسة بكل وسائل التقنية الحديثة من أسلحة ومصورات وغيرها. والسبب في ذلك عدم الاطمئنان على سلامتهم جراء الجريمة المستفحلة.

لقد ساهمت العولمة في نشر الجريمة العالمية على عدة أصعدة. وأهم عامل هنا هو انحسار الحدود القومية التي كثفت التجارة غير القانونية مع سهولة تحويل رأس المال من دولة لأخرى. أما تفكك الاتحاد السوفياتي فقد أدى إلى انتشار الأسلحة وسهولة الحصول عليها مما يساعد المجرمين في تحدي الدولة التي تعمل على الحد من تهريب وتجارة الأسلحة غير المشروعة. زد على ذلك أن

التقدم التقني نفسه قد عمل على تسهيل تبادل المعلومات الإجرامية والتي تتسم في أنها تتم الآن في خلال ثوان قليلة عبر جهاز الحاسوب. ويقول الكاتبان "مارتن" و"شومان" إن أرباح تجارة مخدر الهيروين لوحده قد تضاعفت خمسين مرة خلال العقدين المنتهين في عام 1990م.

ونضيف إلى الجرائم العالمية الاتجار بالإنسان وأعضائه التي أصبحت من المشاكل المستعصية خاصة على الدول الفقيرة. ونخص بالذكر هنا تجارة الأطفال من أجل التبني والنساء من أجل الدعارة وبيع مختلف أعضاء جسم الإنسان من كلي وغيرها.

أما في الغرب فيعد الإرهاب من أعظم الجرائم العالمية التي تتطلب جهداً عالمياً لدرئه ؛ والحل لن يأتي إلا بتعاضد دولي وثيق، لاسيما وأن الجريمة نفسها تتصف في عالم العولمة بلامركزيتها : المجرمون في دولة وأموالهم في عدة دول أخرى وأدوات تنفيد الجريمة يتم تهريبها من أخرى وهكذا[28].

فإن كانت للعولمة إيجابيات التي قالت بأنها ستقدم للبشرية حقوقها وسعادتها وذلك بفضل التقنيات والتكنولوجيا وتقدم الطب. فهذا إذا كان واقعاً فهو مقدم لحساب دول فقط معدودة على رؤوس الأصابع، أما الباقي فمازال يتخبط في أزماته ولا يزداد لأمرها إلا سوءاً عن سوء.

فإن كفتي العولمة إن قارناهما من إيجابيات وسلبيات فحتما سترجح كفة السلبيات لأنها لا تعد ولا تحصى، فهي مازالت كثيرة ولا زلنا نكتشف العديد منها كل يوم.

فقد كان ملفتاً ما تعرضت إليه العولمة من نقد صارم وعنيف، برهن على تخوفات حقيقية، فالأمم والحضارات ليست على استعداد للانصياع والاستتباع الحضاري لتيار العولمة الجارف، وما أطلقه من أحلام وردية ووعود سحرية،

(28) "العولمة دراسة تحليلية نقدية"، د. عبد الله عثمان الثوم، ص ص. 174-181 بتصرف.

تخفي وراءها أضرار خطيرة، كالتي حاول أن يصورها كتاب "**العولمة والجنوب**" الذي اعتبر العولمة ليست فقط تكرس الفروقات وانعدام العدالة الاجتماعية واللامساواة بين الشمال المتخم بالغنى والجنوب الذي يعاني من الفقر المدقع، وإنما تضاعفت هذه الفروقات، وتجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل ردم الفجوة التي اتسعت وسوف تتسع مع العولمة ليس في دول الجنوب فحسب، وإنما سوف تعمق جيوب الفقر داخل الغرب نفسه.

أو التي صورها كتاب "**العولمة النظرية والممارسة**" حيث اعتبر أن هذه الظاهرة قد دشنت عهداً فظاً من العدوان على البيئة كان من مظاهرها انتشار التلوث وتآكل طبقة الأوزون وانكماش التنوع الاحيائي والهدر في استخدام مصادر الطاقة التي لا يمكن تجديدها.

أو الذي تحدثت عنه الكاتبة الفرنسية "فيفيان فوستر" في كتابها الذي اعتبر قاسياً وأثار خلافاً حاداً "**الرعب الاقتصادي**" حيث طرحت السؤال التالي : ما الذي يحصل عندما نعلم أنه ليس ثمة أزمات، بل مجرد تبدل وتحول يقودان المجتمع بأكمله، بل وحتى حضارة بأجمعها إلى المجهول ؟ بدون أن ندرك أن الحضارة السابقة ولت إلى الأبد ؟

عالمية الإسلام

لقد عد الإسلام الناس جميعا أمة واحدة تجمعها الإنسانية وإن فرقتها الأهواء والمصالح. قال تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾[29]. وقال تعالى : ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[30] ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾[31] وأن اختلاف الناس شعوبا وقبائل لم يكن ليتقاتلوا ولكن ليتعارفوا

(29) سورة البقرة، الآية 213.

(30) سورة الأنبياء، الآية 92.

(31) سورة الروم، الآية 22.

ويتعاونوا ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[32] فليس في الإسلام اختلاف في المعاملة بسبب اختلاف اللون، وإن التفاوت بين الناس بالعمل لا باللون أو النسب، وحارب فكرة التمييز العنصري فالناس جميعا لآدم. كما حارب العصبية القبلية والقومية والإقليمية ليكون العدل هو السائد كما أن التعاون الإنساني مبدأ عام في كل الجماعات الإنسانية كما قرره القرآن وحث عليه، ومنع التعاون على الإثم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[33] كما حث نبي الإسلام ﷺ على مساعدة الأخ لأخيه في أي موطن أو موقع : "فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[34] كما أن قانون الأخلاق قانون عام يشمل الأبيض والأسود، ويشمل الناس جميعا في كل الأقطار والأمصار وهم مخاطبون بأحكام الإسلام أنى وجدوا، فهو الشريعة الأسمى الصالحة للعالمين في كل الظروف ﴿وما أرسالناك إلا رحمة للعالمين﴾[35]. ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾[36]. كما أقر الإسلام للإنسان أن يعمر الأرض ويستثمرها ويسير في طريق إصلاحها : ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[37]. فتأمل عبارة استعمركم أي طلب منكم عمارتها، ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾[38]. فالشمولية الإنسانية العالمية تعين الناس على التواصل والتعاون واقتسام الطيبات حتى يكون العالم كله سوقاً للعمل وسوقاً للإنتاج ومجالاً للتبادل والتداول، فرسالة الإسلام إلى الإنسان تعميرية طالبة منه التنقل في أرجاء الأرض للاستثمار ولغيره والتعاون مع الآخرين مع استخدام أسلوب الحوار ﴿ادع إلى

---

(32) سورة الحجرات، الآية 13.

(33) سورة المائدة، الآية 2.

(34) رواه في كتاب "الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار".

(35) سورة الأنبياء، الآية 28.

(36) سورة سبأ، الآية 28.

(37) سورة هود، الآية 6.

(38) سورة الأعراف، الآية 56.

سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[39]. إن الإسلام منذ أيامه الأولى كان واضح المعالم بأنه دين عالمي غايته تقديم رسالة الحضارة الإسلامية بوصفها ضرباً روحياً وخلقياً ومادياً لا يتنافى فيه الدنيوي والأخروي تنافياً انقسامياً يجعل الإنسان ممزقاً بين عالمين : أحدهما تحكمه القوانين الطبيعية الصماء، والثاني تحكمه القوانين الخلقية العزلاء. ولقد كان واضحاً كل الوضوح في لغة القرآن المكي عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانية هذا الدين الذي يخاطب الإنسان جنس الإنسان بغض الطرف عن وطنه وقومه كما في قوله تعالى : ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[40]. وقوله جل ثناؤه : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[41]. وقوله جل ذكره : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾[42]. وهذا الخطاب موجه للناس كافة في شتى بقاعهم ومختلف أزمانهم، وبكل أجناسهم وقومياتهم وألوانهم. وخلال الحوار الذي دار في بيت أبي طالب بين كبار قريش وبين النبي ﷺ قال لهم : "كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم". أي كلمة : "لا إله إلا الله". وفي مطلع السنة السابعة للهجرة باشر النبي ﷺ عمله في المجال العالمي حينما أرسل رسله من الحذيبية يحملون كتبه إلى ملوك وأمراء عصره يدعوهم إلى الإسلام، وعلى رأسهم "قيصر" ملك الروم و"كسرى" ملك الفرس. ثم بدأ بعد ذلك الاحتكاك بالروم البيزنطيين في غزوة مؤتة وتبوك على مشارف بلاد الشام، إذ كانت هذه المنطقة ضمن الإطار الحيوي الاستراتيجي للأمة الإسلامية. ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى حتى كان العرب جميعاً قد دانوا بالإسلام، ووضعت الدعوة الإسلامية خطوات ثابتة ومدروسة في طريق التبليغ العالمي.

وقد ألقيت هذه المهمة الثقيلة على كاهل الخلفاء الراشدين الذين ابتدؤوا الفتوحات الإسلامية لإنقاذ الشعوب من الاستبداد السياسي والاستغلال المالي

---

(39) سورة النحل، الآية 125.

(40) سورة التكوير، الآية 27.

(41) سورة الأنبياء، الآية 107.

(42) سورة سبأ، الآية 28.

والتفكك الاجتماعي والفساد الأخلاقي[43]. إذا كان الغرب قد قدم وعبر عن عولمته، التي أخاف بها العالم، والتي تعرضت لأنواع النقد والمعارضة فهذا لا يعني أنها العولمة القاهرة التي يمكن أن تكون الوحيدة في هذا العالم، والمفروضة على الأمم بلا خيار أو إرادة. لأننا نجد في الإسلام إمكانات حيوية، أخلاقية وتشريعية وحضارية، في غاية الأهمية في التعبير عن عولمة أخرى، مختلفة في جوهرها وماهيتها وفلسفتها ومقاصدها عن عولمة الغرب.

فالإسلام جاء عالمياً وللناس كافة، بلا عنصرية ولا طبقية ولا تمييز ولا تفاضل، وهو من سعى نحو العالمية، كما يذهب "برنارد لويس"[44].

وبناءاً على ما تقدم يمكن القول بأن الإسلام ينفصل عن إشكالية العولمة ـ بعكس النظام الغربي ـ ويبدأ يتعزز المستقبل في العالم الحديث لمبادئ الإسلام لأنه يقود العالم كله للخلاص بعد فشل رأس المال، وفشل الشيوعية وقصور العقائد الروحية الأخرى عن تدارك أحوال المعاش وتدبير الحلول للجماعات الإنسانية في مشكلات الاجتماع والاقتصاد وما يتفرع عنها من مشكلات الأخلاق والأدب، ويقرر توينبي بأن المسار الإنساني نحو العالمية سينتفع بكل تأكيد من عطاءات الإسلام في القضاء على العرقية بجميع تفرعاتها وفي التخلص من مظاهر الانحطاط التي أحدثتها مجتمعات الكحولية أو الملاهي، ويقرر "ريتشارد بـ. ستون" : "بأن المستقبل رهين بمعرفة كيفية مجابهة العولمة أو يتعين على كل ثقافة على حدى أن تجد فقط ارتكاز لتحركها".

فالإسلام ساهم على مر تاريخه في إذكاء جدوة الفكر العقلاني والعلمي وسيضطلع الإسلام بمسؤولية حمل هذا المشعل من جديد.

---

(43) "كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير"، مجلة "الكلمة" العدد 25 السنة السادسة خريف 1999م/1420هـ بقلم الدكتور موسى أبو ريش.

(44) "المسألة الحضارية"، زكي الميلاد، ص ص. 35-36، الطبعة الأولى 1999م عن المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء.

ونظراً لما تحمله شريعتنا الإسلامية من مرونة وقدرة عجيبة على التكيف ودعوتها إلى الصبر والتبصر، فإنها لا تمنع من التجاوب مع الجديد وتوظيفه من خلال جهد إنساني عامل ومسؤول لخدمة القيم العليا والمصالح الكبيرة للأفراد والأمة على ضوء فهم المقاصد العامة للتشريع ؛ فلنا أن نتعامل مع الواقع الحضاري في عصر العولمة وفي غيره بثقة في قدرتنا ـ المستمدة من عقيدتنا ـ على توظيف الإيجابيات ومحاولة التجنب للسلبيات. وذلك بإعمال الفكر في ضوء مقاصد الخطاب الرباني مع التواصي بالحق والصبر، وإذا كانت الممارسات تدعو إلى الواقعية فإن الأزمات المتزايدة قد تدعو إلى الأمل الباعث على الاختراع، وبهذا المنهج تتحول تحديات العولمة إلى استنهاض للإرادات نحو الإبداع وكما يقول "موريس" : "إن كل تقدم تقني يخلق كارثة يستوجب تقدماً تقنياً آخر لعلاجها وتداركها".

فالحضارة الإسلامية نموذج فريد في هذا المجال فقد استطاعت أن تنتشر ظلالها الوارفة على شعوب مختلفة في آسيا وإفريقيا وأوروبا وأن تحتفظ لهم بخصائصهم في ظل ثقافتها العامة وأن تصمد.

خصائص العالمية الإسلامية

إن الإسلام اتسم بالعالمية لأنه جاء ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور، ولم يكن حكراً على نوع من البشر دون غيرهم، ولعل من أكثر الآيات القرآنية التي عبرت عن رؤية الإسلام في هذا المجال قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[45].

هذه الآية تؤسس للعلاقات بين الأمم والحضارات على قاعدة التعارف "لتعارفوا" وليس على أساس النزاع أو الصدام أو الإلغاء والإقصاء. ولقد كونت

---

(45) سورة الحجرات، الآية 13.

نظرية من خلال دراسة هذه الآية في عناصرها ومكوناتها التجزيئية والتركيبية أطلقت عليها نظرية "تعارف الحضارات" واعتبرتها الطريق الثالث الذي بحاجة الاكتشاف مقابل ما يطرح في الغرب من "صدام الحضارات" و"حوار الحضارات" فمن غير أن تبدأ الحضارات من التعارف لن تتخلص من رواسب الصدام، لتصل إلى حوار الحضارات.

التعارف هو أحد أرقى المفاهيم، وأكثرها قيمة وفعالية، ومن أشد وأهم ما تحتاج إليه الأمم والحضارات، وهو دعوة لأن تكتشف وتتعرف كل أمة وكل حضارة على الأمم والحضارات الأخرى بلا سيطرة أو هيمنة أو إقصاء أو تدمير.

والتعارف هو الذي يحقق وجود الآخر ولا يلغيه، ويؤسس العلاقة والشراكة والتواصل معه لا أن يقطعها أو يمنعها أو يقاومها.

وإذا كان من مفهوم للإسلام أو الرؤية الإسلامية للعولمة، فهو مفهوم التعارف الذي يعني التواصل الكوني والانفتاح العالمي على مستوى الأمم والحضارات، وربط هذا المفهوم بوحدة الأصل الإنساني ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾.

وبقاعدة التنوع الإنساني ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل﴾ في وجه التحديات وأن تستوعب كل الثقافات من فارسية وهندية، ولاتينية وأن تصوغ ما أخذته في كيان متماسك.

وقد أخبرنا القرآن عن حضارات قد بادت بعد أن سادت وحدثنا عن أسباب انهيارها ﴿أ لم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾[46]. فالله لا يفوته شيء وهو يراقب الكون والخلائق ويحقق إرادته في إقامة عمارة الأرض وكل شيء في النهاية صائر إلى مشيئته تعالى. ولهذا فإن ما جاء به الإسلام

(46) سورة الفجر، الآية 13-06.

من تأكيد قيم ومبادئ الحرية والكرامة والشورى والعدل والمساواة بين الناس، هي مفاهيم وقيم سبقت النظريات والتجارب الديموقراطية الغربية المعاصرة وهي جزء أساسي من دستورنا القرآني[47].

ونعلم على أن أرضية بناء الحضارة الوارثة والعنصر الفاعل فيها هو الإنسان وهو مقصدها في الآن ذاته لذا كانت أولوية عملية التنوير وتحريك الفعالية الثقافية داخل مجتمعاتنا ركيزة أساسية لفضح سرابية المنتوج الحضاري الغربي، وعلى أن هذا الأخير يستبطن قيما وحشية وغابوية موروثة عن الحضارات البائدة اليونانية والرومانية، الفردانية، النرجسية، الظلم والتعسف الاجتماعيين، العنصرية... أي الرهان على إحياء الإنسان بداية من الاعتقاد إلى الثقافة عبر التأكيد على المقاصد العليا للوجود الإنساني ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[48] مع انتشال الفرد من الأنعامية إلى الحضور الباحث عن التكامل ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾[49] وعلى أن عالم الأشياء لا يعتبر غاية في حد ذاته لكن سخره الله للإنسان على الأرض ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾[50] بأفق الاستمرار في الاستخلاف الأول ﴿وإذ قال رب للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[51] من أجل أن تصبح لحضارة الرسالة الإلهية التي رسمت خطوطها الأصلية والأصيلة على النهج الإسلامي ضرورة إنقاذية ليس فقط للشعوب الإسلامية بل لكل إنسان العالم من أجل انتشاله من حضارة الفوضى والعدم[52]. وأكرمية التقوى ﴿إن أكركم عند الله أتقاكم﴾.

في حين أن العولمة التي عبر عنها الغرب، ترتكز على الانتفاع المادي والجشع الاقتصادي، واحتكار الثروات ورفع القيود عن الأسواق والبضائع وامتصاص

(47) مجلة "الكلمة" العدد 25 السنة السادسة خريف 1999م/1420هـ بقلم : الدكتور موسى أبو الريش.
(48) مجلة "المعرفة" العدد 46 ، محرم 1420هـ، ص. 18، بقلم صبحي محمد الغندور.
(49) سورة الذريات، الآية 56.
(50) سورة الانشقاق، الآية 3.
(51) سورة الجاثية، الآية 13.
(52) WWW.Thamarat.Com

الأموال، وهذه الأمور هي من أكثر العوامل سببا وتحريضا للنزاع والصدام. الشركات المتعددة الجنسيات والتي توصف حاليا بالعابرة للقارات هي التي تقود العولمة في العالم، وهي التي ابتدعتها وتبشر بها، والأقدر على إدارتها وتحريكها، ودوافعها في الأساس اقتصادية وهذا هو حقل العولمة الأساسي ؛ فخلال الخمس عشرة سنة الماضية حققت هذه الشركات نمواً واتساعاً وتضخماً كان من نتيجته ظاهرة العولمة. ففي 1975 كانت تلك الشركات تعد 11000 شركة متروبولية تتحكم ب 82000 شركة فرعية في شتى أنحاء العالم. وكانت قيمة مبيعاتها تصل إلى 25 ٪ من جملة التجارة العالمية ؛ وفي سنة 1990 غدا عدد الشركات المتعددة الجنسيات 37500 ميتروبولية، لها 207000 فرع أجنبي، وبلغت قيمة مبيعاتها نصف الناتج القومي العالمي، على حين أن قيمة المبيعات في فروعها الأجنبية وحدها باتت تعادل في الحجم جملة التجارة العالمية ؛ فعولمة الغرب اقتصادية في الأساس تتوخى الربح والنفع المادي، والأبعاد والحقول الأخرى التي ارتبطت بالثقافة والاجتماع والتربية والإعلام وغيرها، إنما وظفت لذات الغاية الاقتصادية والنفعية.

هذه العولمة إنما تخدم مصالح وأفكار الطرف القوي في العالم، فتطمس الأطراف الأخرى وهي ليست العولمة التي يحتاجها العالم في هذه المرحلة، أو التي يتطلع إليها مع القرن الحادي والعشرين...[53].

بالعكس منها فلقد انطلقت العالمية الإسلامية من منطلقات فكرية وعملية قوية، مما جعلها تلقى القبول لدى الأهالي في البلدان المفتوحة وتتجلى خصائصها في أنها :

- تحمل ميزانا دقيقا للحقوق والواجبات حسب الشريعة الإسلامية.
- تحرص على بناء مجتمع العدل والقوة.
- تنطلق من مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للثروة أو الجاه أو اللون أو العرق.

(53) مجلة "الكلمة" العدد 25 السنة السادسة خريف 1999م/1420هـ بقلم موسى أبو ريش ص ص. 115-116.

- تتخذ الشورى أساسا للنظام السياسي.
- تربي الناس على الإبداع والإتقان من خلال دعوتها إلى العمران.
- تجعل العلم فريضة على الجميع لتفجير الطاقات الإنسانية لمواصلة التقدم والرقي.

وإذا كان الإسلام دينا عالميا، فإن جوهر رسالته وحقيقة مبادئه، لا يعني أيضا المركزية التي تريد للعالم شرعة واحدة ومنهجاً واحداً، بل يرى في تعددية ذلك سنة من سنن الله في خلقه.

﴿لكل جعلنا شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة. ولكن ليبلوكم فيما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات﴾[54].

ومن المبادئ الثابتة لعالمية الإسلام والمؤكدة لمبدأ التسامح، أن الإنسان مكرم بحكم أنه إنسان. ﴿ولقد كرمنا بني آدم، وجعلناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[55].

وليس ثمة أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في مفهوم الإسلام.

ومن ضروب القسط أن يسود التعايش الذي يقوم على أساس العدل في المعاملة والمساواة في العلاقة، وبهذا المعنى فهم المسلمون القسط في قوله تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[56] وقد طبق المسلمون القسط على المستوى اللائق بالإنسان.

ولعل من أكبر الأدلة وأقوى الحجج على قيام الحضارة الإسلامية عبر العصور على أساس متين من التسامح في أسطع معانية، هو تعايش المسلمين مع أهل الملل

(54) سورة المائدة، الآية 48.
(55) سورة الإسراء، الآية 70.
(56) سورة الحديد، الآية 25.

والعقائد في البلدان التي فتحوها خلال هذه القرون المتطاولة. ولو ذهبنا نستقرئ شواهد التاريخ، لما استطعنا أن نحصر في بحث محدود المجال، الأمثلة الحية على التعايش الإسلامي العديم الأمثلة مع أهل الأديان جميعاً، في حين لا نجد أي مظهر من مظاهر التسامح والتعايش في أدنى مستوياته، لدى غير المسلمين.

ولنا أن نقارن بين مشهدين من المشاهد المؤثرة في التاريخ الإنساني الأول هو دخول الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس فاتحاً، والثاني هو استيلاء القائدين الصليبيين "جود فري" و"تانكود" على القدس، وننقل عن المؤرخ "تيولور" ما رواه في كتابه "**عقل القرون الوسطى**" عن المشهد التالي على لسان أحد القساوسة الذين شاهدوا المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها وهو القس "ريموند اأجيلي"، فيقول : "... وشاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، قتل غيرهم رمياً بالسهام- أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق القلاع، وعذب آخرون أياماً عدة ثم ألقوا في النيران، وكانت الطرقات مليئة بأكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما ركب جواده وسار، يسير بين جثث الخيل والادميين"[57].

أما المؤرخ "ولد ديورانت" فيروي في موسوعته "**قصة الحضارة**" عن بعض المعاصرين لهذه الحملة قولهم : "إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح السبعون ألفا من المسلمين الذين بقوا في المدينة"[58].

أما ما وقع عند دخول الخليفة عمر رضي الله عنه إلى بيت المقدس، فهو صورة مشرفة للتسامح الإسلامي الذي رسخ قاعدة التعايش الديني والحضاري والثقافي، فقد دخل عمر بيت المقدس فتلقاه البطريوك وطاف معه أرجاء المدينة ـ بعد أن

---

(57) "عقل القرون الوسطى"، "تيلور"، ص. 551 ج. 1، نقلا عن "**تطور المجتمع الدولي**" للدكتور يحيى الجمل، دار العلم القاهرة، 1966.

(58) "**قصة الحضارة**"، "ولد ديورانت"، مجلد 4 ص. 25، الترجمة العربية لمحمد بدران الطبعة العربية التي نشرتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 1988.

رفض أن يأخذ مفاتيح المدينة إلا من يده ـ حتى دخل كنيسة القيامة فلما حان وقت الصلاة، قال للبطريوك، أريد الصلاة، فقال له : صل في موضعك وكان في قلب الكنيسة، فأبى خشية أن يقتدي الناس به، ويقولون هنا صلى عمر، فصارت الصلاة لنا فيها حقاً، وقد يؤول بهم الأمر إلى الاستيلاء على الكنيسة مخالفين بذلك ما نص عليه في العهد بل إن عمر خرج وصلى على درج باب الكنيسة، وبعد أن انتهى من صلاته، كتب أمراً بأن لا تقام في هذا المكان صلاة جماعة، ولا يؤذن فيه مؤذن، ثم أتى عمر الصخرة فبنى عليها مسجد الصخرة[59].

وكما سلف فإن العبرة من رواية هذا الجانب من تاريخ العلاقة الإسلامية المسيحية، تكمن في تنوير العقل بحقيقة تاريخية شديدة الوضوح وهي أن التسامح في الإسلام هو عقيدة ثابتة وسلوك راق، بل هو منهج حياة طبقه المسلمون في حياتهم الخاصة والعامة، فكان تعاملهم مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، مثالاً رفيعاً قل نظيره للتعايش وهو الأمر الذي يؤكد بما لا يرقى إليه الشك، أن المسلمين رواد التعايش، وأنهم يملكون، وفي كل الأحوال، استعداداً ذاتياً ليتعايشوا مع من يرغب من أهل الأديان والشرائع والملل والعقائد، في أن يتعايش معهم من دون أن يكون هذا الاستعداد، تفريطاً في خاصية من خصائص هويتهم، أو تخلياً عن معتقد من معتقداتهم، أو تنازلاً عن حق من حقوقهم، وإنما هو تعايش يخدم أغراضاً إنسانية سامية من خلال التفاهم والتعاون والعمل المشترك في الميادين التي تحقق هذه الأغراض.

وهناك العديد من الأمثلة التي تدل على أن هذا الإسلام جاء لإخراج الناس من الظلم والاستبداد إلى العدل وليست هذه الدعوة نظرية بل هي عملية.

فهذا نموذج واحد من بين النماذج العديدة في المجال الاقتصادي لرصد العلاقة بين أشكال استثمار الأرض الزراعية في العهد الساساني ـ الفرس ـ والتحول النوعي في العهد الإسلامي.

---

(59) "تاريخ الأمم الملوك"، الطبري، ج. 4، ص. 156.

لقد كان الفلاحون في سواد العراق أيام الدولة الساسانية يرتبطون بالأرض، وجلهم في حالة رق واستعباد خاصة في ضياع الدهاقين النبلاء؛ وتروي المصادر أن هؤلاء دأبوا على جباية الأموال واغتصابها من أصحابها لتدعيم مدخراتهم وإثراء كنوزهم، حتى يروى أن "كسرى خسرو الثاني" اعتلى كرسي الملك وفي خزينته 2.68 مليون مثقال ذهبي لترتفع بعد 13 عاما من الحكم إلى 800 مليون مثقال ذهبي مما دفع الفلاحين إلى هجر الأرض نتيجة الإرهاق الضريبي واللجوء إلى الأديرة طمعاً في الترهيب وفراراً من الظلم.

ولكن بعد الفتح الإسلامي اعتبروا أحراراً، واقتصرت السياسة الإسلامية في عهد الراشدين على إبقاء الأراضي في أيديهم بدافع تشكيل القوى المنتجة من جهة، وتحديد مساحات تلك الأراضي بهدف ضبطها فنياً واقتصادياً، مما سهل أعمال جباية الخراج، وأنصف أصحاب الأرض العاملين فيها من جهة أخرى[60].

فالإسلام هو دين وسياسة، واقتصاد واجتماع وثقافة، الإسلام ليس ديناً كهنوتياً، ليس مجرد علاقة بين المرء وربه، بل هذا ما يراد لخطابنا الديني أن ينحصر في الجانب الكهنوتي فقط، فالإسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والدين نصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[61].

في ضوء الدور الحضاري المتجدد والمتطور للمسلمين خلال العصر الأموي والعصر العباسي، أمكن للحضارة العربية الإسلامية أن تقدم مثالاً من الكونية ونموذجاً من العولمة تتسم بالتأثير على أوروبا المسيحية، عبر معابر الحضارة في الأندلس وصقلية ودمشق وفاس وغيرها من الحواضر الإسلامية تأثيراً إيجابيا، إذ لم يحتكر المسلمون المنهج التجريبي الذي اكتشفوه، بل تركوا المجال مفتوحاً أمام البعثات الطلابية والتي كانت تأتي من أوروبا إلى الحواضر الإسلامية لتستفيد

---

(60) "**المسألة الحضارية**"، زكي الميلاد، ص. 36-37.

(61) مجلة "**البيان**" السنة 16، العدد 145، رمضان 1420هـ، ديسمبر 1999م - يناير 2000م، بقلم د. محمد المحزون، ص. 119.

من الاكتشافات الإسلامية في مختلف فروع العلوم في الكيمياء، والطب، والهندسة، والطبيعة، والرياضيات، والزراعة، وعلم الاجتماع، والحسبة... إلخ، كما ساهمت أيضاً حركة الترجمة عن العربية - التي كانت لغة العصر - إلى اللغات الأروبية وخاصة اللاتينية في نقل مناهج البحث الإسلامي والكثير من نتائجها العالمية.

لقد مثل الإسلام فتحاً في تقاليد العولمة من حيث التعامل مع غير المسلم، إذ كان المخالف أي المعارض يقتل في أوروبا أو يطرد ؛ بينما جاء الإسلام ليقبل الآخر المختلف معه في العقيدة أو الدين، ورتب له أوضاعاً قانونية وحقوقية تحفظ له وجوده، وتحفظ له ممارسة عقيدته، ويكفي أن نعرف أن غير المسلمين الذين عاشوا في المجتمعات الإسلامية قد ازدهرت حياتهم ولم يعانوا أية مشكلة ؛ وعلى سبيل المثال فإن العثمانيين اتجهوا نحو التسامح مع الأقليات الدينية والعرقية، وتناقل المسيحيون عبارة قالها "لوكاس ناتوراس" الزعيم الديني البزنطي في القسطنطينية حيث قال : "إنه خير لنا أن نرى العمامة في مدينتنا القسطنطينية من أن نرى فيها تاج البابوية".

كما كانت الدولة العثمانية ملاذاً للهاربين من الاضطهاد الديني في إسبانيا وفي أروبا ؛ يقول المؤرخ البريطاني "توينبي" في هذا الشأن : "إنها لأول مرة في التاريخ استطاعت أن تتوحد الكنيسة الأرثدوكسية في ظل هذه الدولة التي كانت استراتيجيتها : "وحد واحكم"، بينما كانت الاستراتيجية الاستعمارية تتبنى مبدأ : "فرق تسد"[62]. فالإسلام ليس خطراً كما يدعي الغرب، بل الإسلام رحمة الله للعالمين، الإسلام هو العدالة الإلهية، الإسلام هو الذي جاء بالعدل والميزان ليقوم الناس بالقسط، ولكن الإسلام بالنسبة لهم خطر لأنه خطر على الالحاد، خطر على الاستعباد، خطر على الفساد، على الإباحية، خطر على هذه الأشياء[63]. إن الإسلام

---

(62) برنامج "الشريعة والحياة" 2002/02/22م عن موقع : www.aljazeera.Net.

(63) مجلة "البيان"، ص. 119-120 بتصرف.

يرى في تعدد الشرائع والملل والقوميات والثقافات سنة من سنن الله تعالى، وقانوناً كونياً لا تبديلاً له ولا تحويل ؛ لقوله عز وجل ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[64].

وأن التعايش والتحاور والتعارف بين الأمم والشعوب هو سبيل إلى بقاء هذه التعددية، وإلى تعاون أطرافها جميعا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان لقوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"[65].

خاتمة

إن الخطر لا يكمن في العولمة ذاتها بقدر ما يكمن في سلبية المتلقي، وفي التوظيف الإيديولوجي للعولمة.

إن عالمنا الإسلامي يمتلك مخزوناً جباراً من رؤوس الأموال ومن الثروات الحيوية والمعدنية بالإضافة إلى التلاحم الجغرافي والتكامل في الموارد وتوفر الكفايات العلمية والأدمغة المهجرة، لو تم ترشيدها وحسن تسخيرها في إطار وحدوي بين البلاد الإسلامية لأمكننا الاستغناء عن العالم الخارجي على الأقل في الاحتياجات الاستراتيجية.

"ومن الصدق أن نقتنع بأن العقيدة هي وحدها العنصر القادر على امتصاص ما يعانيه العرب والمسلمون من عوامل التفريق وأسباب التناقض، كيفما كان نوعها ومصدرها"[66].

إننا بحاجة إلى بناء الإنسان المسلم بناء إيمانياً قوياً راشداً، معتزاً بذاته، مغيراً لظروف حياته، عارفاً بظروف الأمم الأخرى، قادراً على نهوض حقيقي في مواجهة أخطار العولمة.

---

(64) **"أبعاد الحملة الأمريكية على العالم"**، الدكتور يوسف القرضاوي، ص. 18.

(65) سورة هود، الآيتان 118-119.

(66) **"هويتنا والعولمة"**، د. عباس الجراري، ص. 105، منشورات النادي الجراري، مطبعة الأمنية.

والشرط الأساس أن نعيد إليه الاعتبار، ونخلصه من الاستيلاب السياسي الذي تعرض له خلال القرون الأخيرة، كي يخطط لمشروعه الحضاري المتكامل ليخدم نفسه ويخدم غيره.

إن الغرب على التحقيق اليوم ليس بحاجة إلينا في التقنيات المتقدمة، بل نحن نحتاج إلى ذلك كثيراً، ولكن الغرب يحتاج إلى قيمنا كما نحتاج إليه، ولو أخذنا بوسائل العولمة الحديثة التي يستعملها للتدمير، ووجهناها من خلال قيمنا وأخلاقنا إلى التعمير، لخدمناه وخدمنا البشرية جميعاً، وخدمنا قبل ذلك أجيالنا وحصناهم كي لا يقعوا فريسة سهلة أمام مغريات العولمة وخلقياتها التدميرية للقيم وثقافات الأمم والشعوب[67].

(67) "العولمة من المنظور الإسلامي"، د. محسن عبد الحميد، ص. 65 بتصرف.

العالمية القرآنية

محمد السيسي

كلية الآداب ـ مكناس

تهدف هذه المداخلة إلى إبراز عالمية رسالة القرآن من خلال القرآن ذاته، إذ لا أدل على الحجية ـ أو لنقل على الإثبات ـ من أن يشهد الشيء على نفسه، وذلك من منطلقين :

1) من تصريح القرآن ذاته بهذه العالمية التي يحملها خطابه.
2) المبادئ والأفكار والنظم والقيم التي تطبع هذا الخطاب.

ولأن تجليات العالمية القرآنية في الخطاب القرآني تستوعب مفهوم العالمية[1] بالمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فإن الحديث سيكون انتقائيا بصورة تمكننا من إقامة الحجة عمليا على عالمية القرآن بما يوجبه المقام، ولأنه لا حول ولا قوة لأي كان أن يستوعب الكلمات القرآنية ولو تظاهر عليه الإنس والجان وتقنيات الحواسب، وتلك حالة من حالات الإعجاز ودالة من دلالات العالمية التي اختص بها كتاب رب العالمين، وإذا نحن عالجنا هذه العالمية من جهة المصدر بمثل قوله تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾[2] ومن جهة المستهدف (الإنسان) بمثل قوله تعالى : ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم﴾[3]. إذا حصل هذا نكون قد وفينا بعض واجب هذه المناسبة العلمية.

---

(1) قال تعالى : ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.
(2) الشعراء : 192.
(3) التكوير : 27-28.

وأعتقد جازما أن القول في عالمية القرآن هو قول حتم في مائدة علمية فموضوع : "العولمة وأثرها في تطور الاجتهاد وآفاقه" بطبيعته يطلب ذلك ؛ والعولمة باعتبارها توجه فكري يحاول توظيف آلية العصر من أجل الهيمنة تعني مما تعني الطريق المفتوح للأشخاص والأفكار والأمتعة في إطار برنامج انتقال الفيروسات بين بلدان العالم ولاسيما بلدان العالم الإسلامي. في عصر انحصر فيه العالم المعاصر عن أي منافس عقدي للرأسمالية المتسارعة (العولمة) بعد سقوط الشيوعية، إلا من الإسلام وبالذات لعالميته[4].

وإن الاجتهاد بما هو أداة منهجية للقيام بعملية استنطاق كليات الرسالة ومقاصدها لمواجهة المستجدات، ورفع التحديات، لا يمكن الحديث عنه دون امتلاك تصور واضح لعالمية القرآن، إذ الاجتهاد من هذا الجانب أداة أساسية من أدوات عالمية دعوة القرآن، أُسِّس بُنيانه المنهجي والإجرائي على إدراك الأحوال والمستجدات الكونية والمحلية، الذاتية والموضوعية، الفردية والاجتماعية، اعتبارا للتأثير والتأثر، والفعل والانفعال في الحاضر والمستقبل...

• مفهوم العالمية :

لا مناص من الرجوع إلى اللسان العربي لتحديد مفهوم العالمية، لأننا بصدد لفظ عربي يتعلق بكتاب عربي أعرب عن مقاصده بلسان عربي مبين، يجمع ذلك قول الله تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[5].

تقول المعاجم في مادة (علم) العَلَمُ : الأثر الذي يَعْلَمُ به الشيءَ كعَلَم الطريق وعَلَم الجيش والمنار. ومنه سمي : المشهور، والجبل، والشق في الشفة العليا، عَلَم. والعالم جمع أشياء مختلفة ولا واحد له من لفظه وهو في الأصل اسم لما يُعلم به، بني على مثال فاعل، كالطابع، والخاتم، لما يطبع به ويختم به. والعالم :

(4) انظر الإسلام والغرب والعولمة لحسن أوريد، ص : 54.

(5) الشعراء : 193-194-195.

الخلق كله، والعالم اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض، وجُعل بناؤه على هذه الصفة لكونه كالآلة. قال الراغب في المفردات : والعالم آلة في الدلالة على صانعه، ولذلك أحالنا تعالى عليه في معرفة وحدانيته فقال : ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾[6]. ودل لفظ العالم على الجمع لأن كل نوع من أنواع الجواهر والأعراض أصناف للخلق، وقد يسمى كل نوع من هذه الأنواع عالما فيقال : عالم الإنسان، وعالم الماء، وعالم النار.

وجمع العالم عالمون، والعالمون أصناف الخلق أيضا، ولا يجمع شيء على فاعل جمع سلامة إلا هذا[7] لكون الإنسان في جملته إذا شارك غيره في اللفظ غلب حكمه، أو لأنه عني به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس دون غيرهم[8].

فالعالمية إذن نسبة إلى العالم على غير قياس، وهي مصدر صناعي يدل على صيرورة الشيء عالميا، وإن مما فسر به لفظ العالمية في القرآن الكريم : عالم الإنس والجن[9].

ونحن عندما نقول العالمية "نسبة إلى العالم" موصوفة منعوتة بالقرآنية فإنما نعني أن القرآن رسالة الله وناموسه إلى الناس أجمعين عربهم وعجمهم، والجن تبع لهم في هذا، لأن القرآن خطاب تكليف، والتكليف أمانة الاستخلاف، وأمانة الاستخلاف حُمّلها الإنسان لأنه هو المؤهل لذلك فطرة قال تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجن والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾[10]. ومن ثم مسؤولية الإنسان على باقي مكونات العالم.

والعالمية القرآنية تستمد دلالة مفهومها هذا من كون العالم بكل أشيائه وأنواعه مخلوق لله رب العالمين، ومن الدلالة اللغوية والمفهومية لألفاظ آيات القرآن الواردة في هذا الشأن، ومن العقائد والتشريعات والأخلاق والقيم التي نص عليها

---

(6) الأعراف : 185.

(7) وقيل جمع العالم عوالم.

(8) انظر مفردات الراغب، ولسان العرب، ومعجم مقاييس اللغة، مادة (عَلَم).

(9) انظر تفسير الطبري 1.

(10) الأحزاب : 72.

الخطاب القرآني[11]، لا من باب التأسيس لأن هذا أمر معلوم من طبيعة القرآن بالضرورة لأهل الشأن، وإنما من باب التذكير والتوكيد.

وإذا كانت العالمية القرآنية أمر تقتضيه طبيعة الخلق من حيث أنه مخلوق واحد، ولازم من لوازم الربوبية عقلا وواقعا، وتناغما مع عناصر الكون، فإن مما يعنيه لفظ العولمة الذي هو محور هذه الندوة ـ التطبيع والقولوية والتنميط[12]. وعليه فإنه من الأهمية بمكان إدراك وفهم العالمية في هذه المرحلة بالذات من تاريخ البشرية، وخصوصا في العالم الإسلامي حتى يميز الخبيث من الطيب، ويدرك الخطر الأكبر الذي يهدد وجوده الإيماني والحضاري، بل ويهدد الحضارة البشرية جمعاء.

• نصوص من عالمية الخطاب القرآني :

أـ نصوص في عالمية التنزيل : قال جل وعلا : ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾[13].

وقال تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾[14]. وقال تعالى : ﴿الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾[15].

---

(11) والتدليل على ذلك من القرآن هو محور هذه المداخلة، وهذا من باب التذكير والتأكيد لا من باب التأسيس.

(12) وقد سميت العولمة عند بعضهم بالشوملة، يقول عبد الهادي بوطالب : من الصياغة اللفظية لفعلي عولم وشومل يظهر أن عملية صوغ العالم صوغا جديدا يباشره فاعل على مفعول به، وليست عملية عفوية تلقائية، بل يظهر من دلالتها وجود إرادة وتصميم من لدن صانع العولمة وعلى المفعول به أن يتقبل هذا الصنيع راضيا أو مكرها. انظر **نحو عولمة أخرى أكثر عدلا وإنسانية**، ص : 19.

(13) **يونس** : 37.

(14) **الشعراء** : 92.

(15) **السجدة** : 1.

ب ـ نصوص في عالمية الرسالة والرسول : قال تعالى ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾[16]، وقال تعالى : ﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[17]، وقال تعالى : ﴿إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[18]، وقال تعالى : ﴿وإن يكادوا الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين﴾[19].

ج ـ توجيه الخطاب إلى عامة الناس : كما في قوله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾[20]، وقوله تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾[21] وقال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[22].

د ـ توجيه الخطاب إلى جنس الإنسان : قال تعالى : ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك﴾[23] وقال تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[24].

هـ ـ توجيه الخطاب باسم العباد : قال تعالى : ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين آسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾[25] وقال تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا...﴾[26].

---

(16) الأنعام : 91.
(17) يوسف : 104.
(18) الأنبياء : 106.
(19) القلم : 51-52.
(20) الأعراف : 158.
(21) سبأ : 28.
(22) إبراهيم : 1.
(23) الانفطار : 6-7.
(24) التين : 4.
(25) آل عمران : 20.
(26) الشورى : 5.

هذه بعض من أساليب خطاب القرآن الدالة على عالمية الرسالة، والنصوص في هذا كثيرة يصعب حصرها بالنظر إلى تنوع الأساليب.

• قراءة أولية في الآيات :

إن تدبر ما يتلى في هذه الآيات، وغيرها من القرآن الكريم بعد إزالة الأقفال على القلوب بما ران عليها من ذنوب الإيديولوجيات البشرية لكفيل بإزالة الحجب عن حقيقة عالمية مصدر الرسالة وأنها من رب العالمين. وعالمية الرسول بكونه رحمة للعالمين، وعالمية الرسالة لأن المستهدف الأول فيها هو الإنسان (الجنس)، وأن طبيعة ما حوته هذه الرسالة من نظم وتشريعات هي ذات طبيعة عالمية سواء تعلق الأمر بالتصورات العقدية وسلامتها، أو بالنظم الاجتماعية وتحولاتها، أو بالسياسية وتقلباتها، أو بالاقتصادية ومشكلاتها. كل ذلك في إطار تشريعي رباني لا يتقيد بحدود ولا يخضع لأهواء ولا تجري عليه محدودية وعوارض التفكير البشري ولا رغباته ولا نزاعته وعواطفه، قال تعالى : ﴿كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[27] محفوظة ألفاظه ومبانيه ومعانيه لأنه أيضا ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾[28]، خاصيته المتفردة كونه خطابا إلهيا للبشرية كلها في سائر عصورها وأمنتها... ولم يكن خطابا خاصا بالعرب وإن نزل بلغتهم، ولا بالجزيرة العربية وإن نزل في أهم أمكنتها، فكل ذلك إنما هو بداية الانطلاق باتجاه العالم بأسره، قال تعالى : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾[29] وقال تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض﴾[30].

(27) فصلت : 41.
(28) فصلت : 2.
(29) الفتح : 28.
(30) الأعراف : 158.

وبهذه الخاصية المتفردة استوعبت رسالة القرآن الزمان والمكان والحدود بما نصب فيها من هداية كاملة وقيم ثابتة وأنساق معرفية راشدة وبهيمنتها هيمنة تصحيح وتقويم وتوجيه وتصديق، على الرسالات والحضارات والثقافات السابقة، قال تعالى : ﴿إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾[31]، وقال تعالى : ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم...﴾[32] وقال تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾[33].

• عالمية القرآن ضرورة إنسانية قائمة :

لن نرجع إلى التاريخ لنستبين الظروف التي اقتضت رسالة إسلامية قبل بعثة محمد ﷺ، فتلك مرحلة أكدت الدراسات التاريخية أنها من أحط أدوار التاريخ البشري بما عرفته الإنسانية فيها من تيه وضلال، وقد خلت بما لها وما عليها باعتبار ما. وإنما نقف وقفة تدبر وتأمل واستبصار واعتبار فيما يتخبط فيه المجتمع البشري في التاريخ المعاصر لندرك أهمية عالمية القرآن وضرورتها في حياة الإنسانية اليوم، وهي تعيش حقيقة ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإنه له معيشة ضنكا﴾[34].

إن أحوال العالم بأسره تعيش ما جنت براقش على نفسها. فأحوال العالم الإسلامي في ضيق من مكر الآخر منذ أن تخلى عما كانت به عزته، وبه تحفظ كرمته، فكثير هم أولئك الذين ينظرون إلى الإسلام في الغرب وكأنه قوة عدائية تهدد مصالحهم وقيمهم، فصبوا جام غضبهم على هذا العالم[35].

---

(31) النحل : 90.

(32) الإسراء : 9.

(33) المائدة : 50.

(34) طه 122.

(35) انظر الإسلام والغرب والعولمة لحسن أوريد ص : 44.

والحضارة الغربية وإن بمركزيتها العالمية لم تستطع أن تخرج العالم من المأزق الذي هو فيه، وإن أفلحت في التقدم التكنولوجي. فالتدهور الاجتماعي والإفلاس الروحي والنفسي وفقدان الأمن العقدي والغذائي سمة هذا العصر بامتياز. وإن تمرد الإنسان على ذاته وعلى الأنظمة البشرية التي تحاول عبثا تأطيره لأمر أظهرته الشهوات الفاتنة، والإسراف في التيه، والاستخفاف بالواجب، وإهدار الحقوق ونبذ التكاليف. سواء تعلق الأمر بالعالم المتقدم أو بالعالم المتخلف.

وإن النسق الحضاري القائم الآن على الصراع وغلبة الأقوى وسيطرة الشركات الكبرى ليس بقادر بحال على تحرير الإنسان وانتشاله من هذا التمرد. كيف وهو السبب الرئيسي فيما يعيشه إنسان العصر من محن؛ وإذن فلا مندوحة من الرجوع إلى عالمية القرآن التي تطوي كل هذه العوالم وتحيط بها بتعاليم القرآن وإمكاناته المطلقة المنزلة إلى الإنسان من رب العالمين تنزيلا من رفيع الدرجات ذي العرش الذي يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، وإن الأمة الإسلامية - في شخص علمائها - هي المسؤول الأول في هذا الرجوع، ونقطة البدء فيه وحدة الأمة باعتبارها أمة مناط الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[36] والحمد لله رب العالمين.

(36) آل عمران: 110.

العولمة والعلاقات الدولية

محمد بنكيران

كلية الآداب – القنيطرة

اعتبارا لما تطرحه ظاهرة العولمة على النخب الثقافية والعلمية من الأسئلة العميقة والحرجة حول صورة وآفاق المستقبل لهذا العالم بشكل عام وبلدانه المتخلفة بشكل خاص، فإنها باتت واحدة من أكثر القضايا تطلبا للدرس والتحليل وتبين الآثار الإيجابية أو السلبية لها.

وليس يعني هذا أنها تفتقر إلى الدراسات والأبحاث في حد ذاتها وإنما بالدرجة الأولى إلى الموضوعية والشمولية أي في مقابل ما يغلب على بعض منها من التحيز وضيق الأفق والجزئية.. وذلك لأن مفهوم العولمة يقيم علاقة بين مستويات متعددة للتحليل تشمل الاقتصاد والسياسة والثقافة والتاريخ والإيديولوجيا وغير ذلك، كما يتطلب فهم واستيعاب ما يتداول من شعارات ومفاهيم في ضوء السياق التاريخي والثقافي لفلسفة العولمة وبالنظر إلى الأهداف الاستراتيجية المرتبطة بها.

ومن هنا يأتي الحديث عن العولمة والعلاقات الدولية في صدارة الأبحاث التي تخدم تعميق النقاش وتوسيعه ووضع الأصبع على أهم تجليات العولمة ومجالاتها.

وبناء على ذلك تناولت في العرض ثلاثة أمور، أولها : تحديد المفهوم، والثاني : المواقف من العولمة، والثالث : العولمة والعلاقات الدولية.

1. تحديد المفهوم :

رغم أنه يوجد أكثر من تعريف للعولمة بمختلف الصيغ والعبارات وانطلاقا من عدد من الرؤى والاتجاهات فإن هناك اتفاقا بين ثلة كبيرة من الدارسين والمتخصصين على أن مفهوم العولمة يشير إلى مجموعة الظواهر والمتغيرات والتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية والتكنولوجية والمعلوماتية التي تمتد تفاعلاتها وتأثيراتها لتشمل معظم دول العالم ومناطقه، وبهذا المعنى فإن العولمة تعبر عن مرحلة تاريخية في تطور العالم جوهرها تحقيق المزيد من التأثير على الدول والشعوب وثقافاتها المختلفة وهو ما يؤكد على تراجع مكانة وأهمية الحدود بين الدول تحت ضغط كثرة وتعدد الظواهر العابرة لهذه الحدود، هذا هو ما عبر عنه الكثير من الدارسين للظاهرة، ولكن انطلاقا من القاعدة المشهورة القائلة : "الحكم على الشيء فرع من تصوره" وانطلاقا كذلك من أن التصور الصحيح لا يبنى على التخيلات والدعاوى العارية من الدليل فإن المنهج السليم يقتضي الرجوع إلى مصادر العولمة واستخراج تحديدها من منطوق كلامهم، ولهذا اقتصرت من التعاريف الكثيرة والمتعددة على نموذجين اثنين لهذه الاعتبارات خاصة.

والتعريف الأول هو لصندوق النقد الدولي حيث جاء في التقرير الصادر عنه ما يأتي : "العولمة تعني ترابط المصالح الاقتصادية للدول اعتمادا على بعضها البعض من أجل توسيع وتنويع تبادل البضائع والخدمات وتنشيط الحركة الدولية لرؤوس الأموال وكذا لتسريع انتشار التقنيات الحديثة فيما بينها" ويضيف التقرير : "إن العولمة تفتح آفاقا جديدة أمام المصالح الاقتصادية للدول كما تدفع بها لمواجهة الكثير من التحديات".

وأما التعريف الثاني فهو لمنظمة التجارة العالمية يقول مديرها روناتو روجييرو عام 1997 : "فالعولمة لا تعني فقط تحرير التجارة وتنقل الرساميل والاتصالات والتكنولوجيا وإنما تعني التقارب المتزايد في المصالح والأهداف والتطلعات والآمال وكذا في تماثل التصور والإدراك والرؤية نحو العالم، إن العولمة لا تعني

الاندماج الذي يقتصر على تعميق الروابط التجارية فحسب بل إنها تعني اندماجا يفضي إلى شبه تماثل في الهياكل التحتية وإلى شراكة في شبكات الإنتاج والاستهلاك وإلى نسج روابط متينة في علاقات التعاون عبر الحدود بحيث إن الرهان المطروح سواء بالنسبة للدولة الوطنية أو المجموعة الجهوية إنما يتمثل في اقتصاد عالمي وبالتالي أن تكون مبادرتهما تستهدف الخارج وليس الداخل لأن المطامح الجهوية أو الوطنية مهما كانت فإنها تبقى محدودة الأهمية بالنسبة لما تسعى منظمة التجارة العالمية لإنجازه".

وبناء على هذين التعريفين نستنتج ما يلي :

1 ـ إن الصياغة التي يتم الحديث بها عن العولمة تصورها على أساس أنها موضوعة لخدمة الدول والدفع بها إما لمزيد من التقدم أو لتجاوز الصعوبات والتحديات التي تواجهها على الأقل وبناء على ذلك فهي أحد المشاريع الواعدة والمبشرة بالكثير من الإيجابيات والمنافع والمحققة للاستقرار والرفاه العالمي بعيدا عن كل تمييز أو محاباة.

2 ـ تتميز العولمة بالبعد الشمولي وذلك على مستوى دول العالم بأسره ولهذا يفضل البعض استخدام مصطلحات أخرى مثل "الكوكبة" و"الكونية".

3 ـ في الوقت الذي يركز فيه أصحاب هذا المشروع على المجال الاقتصادي باعتباره القطب الذي تدور حوله العولمة وإليه تنتهي أهدافها وغاياتها، فإنهم لا يغفلون الحديث عن أهمية الجوانب والمجالات الأخرى عدا الاقتصاد في نجاح هذا المشروع، فتحرير التجارة وتنقل الرساميل يتوقف إلى حد كبير على وجود الوعي بضرورة التقارب بين المصالح والأهداف والتطلعات والآمال، ولا يتحقق هذا إلا بشرط التماثل في الرؤى والتصورات والإدراك نحو العالم، وهذا يعني أن العولمة لها غايات وأهداف تتعدى الإطار الاقتصادي إلى ما سواه من الأطر التي أخطرها الإطار الثقافي.

4 ـ جوهر عملية العولمة إذن يقوم على تسهيل حركة ثلاثة عناصر هي المعلومات والسلع وحركة الناس، فالأولى وهي المعلومات ينبغي العمل على

تسهيل نشرها حتى تصبح مشاعة لدى الجميع، والثانية وهي السلع تقتضي تذويب الحدود بين الدول، والثالثة وهي حركة الناس تتطلب الزيادة في معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات[1].

5 ـ أتت صياغة عبارات ومصطلحات المتحدثين عن العولمة والمبشرين بها كما هو واضح عامة وفضفاضة ومحتملة لأكثر من معنى، فالكلام عن التشابه بين الجماعات والتأثير المتبادل فضفاض غير محدد ويوهم أن التأثير والتأثر عمليتان قابلتان للتحقق في كل بلد على حد سواء وعلى أساس مختلف القيم والثقافات، في حين أن هناك الكثير من الأدلة على أن قيما بعينها دون غيرها يراد لها التدويل هي القيم الأمريكية فقد أشار بريجينسكي على سبيل المثال وهو مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر إلى ما يدل على هذا بقوله : "إن على الولايات المتحدة الأمريكية وهي تمتلك هذه النسبة الكبيرة من السيطرة على الإعلام الدولي أن تقدم للعالم أجمع نموذجا كونيا للحداثة بمعنى نشر القيم والمبادئ الأمريكية"[2]. اهـ كلامه.

وهذا هو ما جعل عددا من الدارسين يسمون العولمة أمركة منبهين إلى أن من أخطر آثارها تآكل الثقافات وانمحاء الخصوصيات وهيمنة الأقوياء.

2ـ المواقف من العولمة :

يلاحظ في مقابل ما يدعيه أصحاب هذا المشروع من الوعود بالرفاه والاستقرار كما تقدم وجود مواقف أخرى ترى في العولمة نقيض هذه الادعاءات تماما، واللافت للانتباه في هذه المواقف هو أنه يوجد فيمن يتبناها أفراد وهيآت تنتمي إلى بلدان ما يصطلح عليه بدول الشمال أو الدول الغنية التي تعتبر المستفيد الأول من عائدات العولمة أو على الأقل هي أكثر حظا من إيجابياتها موازنة مع دول الجنوب أو الدول الفقيرة، فقد اعتبرها كل من هانس بيتر مارتين وهارالد

(1) انظر : السيد يسين : "في مفهوم العولمة" **مجلة المستقبل العربي**، ع. 228 فبراير 1998، ص. 7.

(2) انظر نايف علي عبيد : "العولمة والعرب" **مجلة المستقبل العربي**، ع. 221 يوليوز 1997، ص. 30.

شومان على سبيل المثال وهما باحثان ألمانيان فخا في كتابهما "فخ العولمة" المطبوع في الترجمة العربية ضمن سلسلة عالم المعرفة.

وعلى المستوى الشعبي هناك احتجاجات متكررة وضاغطة تقوم بها فئات عريضة في دول الشمال أساسا قبل كل اجتماع سياسي أو اقتصادي دولي تشهد على درجة العداء الذي ينتشر الآن ضد مهندسي العولمة ومنظريها.

ومن المفارقات الصارخة في هذا المجال أن المؤيدين لمشروع العولمة يوجد الكثير منهم في بلدان الجنوب التي يتفق جمهور عريض من الباحثين على أنها متضررة حتما من هذا المشروع.

وتنبني مواقف المؤيدين للعولمة على اعتبار ما لها من الإيجابيات التي تتلخص في نظرهم في ثلاثة عناصر، أولها : سيادة نظام الحرية الاقتصادية وثانيها : انحسار فكرة السيادة وتجاوز الحدود وتراجع دور الدولة الذي سينحصر في إلغاء القيود على السوق وميادين الاستثمار وتشغيل رؤوس الأموال ومحاربة الفساد والبيروقراطية (وهذه النقطة لهاصلة رئيسية بموضوع هذا العرض ولهذا سيكون لنا معها وقفة وتفصيل)، وثالثها : الإسهام ـ بفضل شيوع الاتصال وتسهيل نقل المعلومات ـ في إيجاد ثقافة عالمية واحدة متحررة من التعصب الإيديولوجي ومنفتحة على عقلانية العلم ومتميزة بحياد التقانة ومنع التحيز المسبق لأمة أو دين أو إيديولوجيا بعينها، ويؤسس هؤلاء على موقفهم هذا القول بأن كل من يقف ضد العولمة فإنه يقف ضد التحرر والتطور والتنمية والموضوعية والعقلانية والتسامح[3].

وأما المعارضون لمشروع العولمة فهم فئات عريضة في مختلف أرجاء العالم شمالا وجنوبا وشرقا وغربا كما تقدم لا يربط بينهم رابط من دين ولا ثقافة ولا إيديولوجيا بل ولا تخصص في بعض الأحيان، فالموقف ينضوي تحته الاقتصاديون وعلماء السياسة والاجتماعيون والفلاسفة والإعلاميون والفنانون

(3) انظر د. عبد الواحد الناصر : **المشكلات الدولية الكبرى**، ص ص. 205-207.

وعلماء البيئة والطبيعة.. كل هؤلاء توحدت مواقفهم المناهضة من العولمة وغدا كل منهم يعارضها من زاويته الخاصة.

وفي هذا الإطار اعتبرها مؤلفا كتاب "فخ العولمة" وبالاً على الكثير من الشعوب والفئات الاجتماعية، وحركة مضادة للديموقراطية ومبادئ العدالة الاجتماعية وانتكاسة تاريخية وعودة بالأمم إلى الماضي المتوحش للرأسمالية في فجر شبابها إبان مرحلة الثورة الصناعية (1750-1850).

ويشير المؤلفان إلى أن ما يرسم الآن ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية في ظل نظام العولمة في غالبية دول العالم من زيادة البطالة وانخفاض الأجور وتدهور مستويات المعيشة وتقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدول وإطلاق آليات السوق وابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وحصر دورها في حراسة النظام وتفاقم التفاوت في توزيع الدخل والثروة بين المواطنين.. كل ذلك سيؤول بالمجتمعات في نهاية المطاف إلى أن تكون نسبة قليلة من السكان هم الذين سيمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام أما النسبة الكبيرة فتمثل السكان الفائضين عن الحاجة الذين لن يمكنهم العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير، ومما يزيد في تكريس هذه الأوضاع توقف مساعدات التنمية التي كانت تعطى للبلاد النامية بسبب انتهاء الحرب الباردة وموت حوار الشمال والجنوب ودخول الدول النامية النفق المسدود للمديونية الخارجية.

وقد قدم المؤلفان في هذا الصدد حقائق مرعبة تستند إلى أرقام وإحصاءات دقيقة، ومن ذلك أنهما أشارا إلى أن 358 مليارديرا في العالم يملكون ثروة تضاهي ما يملكه 2,5 مليار من سكان المعمورة أي ما يزيد قليلا عن نصف سكان العالم، وأن هناك 20 في المائة من دول العالم تستحوذ على 85 بالمائة من الناتج العالمي الإجمالي وعلى 84 في المائة من التجارة العالمية ويمتلك سكانها 85 في المائة من مجموع المذخرات العالمية، وهذا التفاوت القائم بين الدول يوازيه تفاوت آخر داخل كل دولة حيث تستأثر قلة من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطني

والثروة القومية، ولهذا قرر بعض الدارسين أن العولمة لا تسهم فقط في تعميق الفوارق على المستوى العالمي والجهوي وإنما على المستوى الوطني أيضا حيث تتعايش فئات الفقر والغنى والشمال والجنوب والعالم الأول والثالث في نفس المدينة وأحيانا في نفس الحي[4].

ويذهب المفكر الفرنسي Serge Latouche في كتابه مخاطر السوق الكونية Les dangers du marché planétaire إلى أن التطورات التي تحدث باسم العولمة تؤدي إلى مخاطر فادحة وجسيمة للإنسانية اعتبر أهمها : اختفاء السياسة وإضعاف الرباط الاجتماعي خصوصا في بلدان الشمال وتهديد الدول الوطنية بالتفكك والفساد والتدمير المتسارع للطبيعة وللنطاقات الإثنية والثقافية للأفراد.

وباستعراض ما أشار إليه في جانب البيئة وحده نقف على حجم الكارثة التي تسببها العولمة، فهو يعتبر أن المنافسة الحادة بين الدول الصناعية أدت إلى استعمال الثروات الطبيعية بطريقة عشوائية في بلدان الشمال واستنزاف الموارد غير المتجددة بطريقة ساذجة في دول الجنوب، وأشار إلى أنه في ميدان الزراعة مثلا أدى الاستعمال المركز للأسمدة الكيماوية والمبيدات والسقي المنتظم إلى نتائج سلبية على الطبيعة نتج عنه تدمير الأراضي وجفاف وتسمم المياه الجوفية والتصحر وبذر ونشر الطفيليات غير الصالحة، كما أدى التصنيع وما صاحبه من التلوث البيئي إلى اختفاء الغابات وثقب طبقة الأوزون والتصحر وموت المحيطات وانقراض ملايين الأنواع من الحيوانات[5].

وهذا يعني أن أثر العولمة على البيئة أثر كارثي، وأن الكرة الأرضية مهددة برمتها بالدمار الشامل.

ولا يغفل كل واحد من هؤلاء وغيرهم الحديث عن الحلول والبدائل لتفادي الأزمات والآفات والكوارث الناجمة عن العولمة كل حسب اجتهاده ومن زاويته الخاصة وهو ما ينبغي الاطلاع عليه في مظانه إذ ليس هذا موضع بسطه وتفصيله.

---

(4) انظر : عباس برادة السني : العولمة الاقتصادية ضمن منشورات الزمن ص. 18.

(5) **مجلة المنعطف**، ع. 23-24/1425-2004 ص. 222.

3 ـ العولمة والعلاقات الدولية :

إن من بين المفاهيم التي وقع حولها الاتفاق في القانون المعاصر مفهوم سيادة الدولة وهي ذات مظهرين متمايزين، أحدهما داخلي والآخر خارجي، فالمظهر الداخلي يتجلى في كون الدولة المشرع الأعلى للشؤون الداخلية ويشترط في السيادة من هذه الناحية شرطان اثنان هما : عدم القابلية للتجزئة وعدم المحدودية فلو جزئت هذه السيادة مثلا لما كان هناك واجب الخضوع لها إذ يمكن أن يكون الخضوع مرة إلى "أ" ومرة إلى "ب" في مسألة أخرى، وأما عدم المحدودية فمعناه انتفاء الحدود والقيود على السيادة لأن وجودها لا يكون إلا في ظل الخضوع لسلطة أجنبية.

وأما المظهر الخارجي فيتجلى في كون الدولة تتمتع بحرية العمل والتصرف حسب إرادتها ومشيئتها وما تقتضيه مصالحا، ونتيجة لذلك أصبحت سيادة الدولة تعني في العلاقات الدولية أن لكل دولة الحرية الكاملة في تنظيم علاقاتها مع غيرها من الدول بما في ذلك حقها في إعلان الحرب وحتى في ضم أرض الدولة المهزومة[6].

وبغض النظر عما وجد ويوجد في هذه القضية من تفاصيل وجزئيات وما عرفته من تطورات وإضافات فإن المبادئ الأساسية لها ظلت هي هذه المذكورة أعلاه، وهكذا ففي 14 ديسمبر 1974 أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول ونصت المادة الأولى منه على أن كل دولة تتمتع بالسيادة الكاملة على مواردها الاقتصادية ويتيح لها حق السيادة أن تختار بكل حرية نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وفقا لإرادة شعبها ودون تدخل خارجي من أي نوع كما أن لها الحق في أن تحدد بحرية أوضاع علاقاتها الخارجية وأهداف ووسائل تنميتها[7].

---

(6) انظر لمزيد من التفصيل : دينيس لويد : فكرة القانون، تعريب سليم الصويص مراجعة سليم بسيسو، سلسلة **عالم المعرفة** 47 الكويت ـ المحرم/صفر 1402 ـ نونبر 1981 الفصل الثامن ك القانون والسيادة الدولية ص. 203.

(7) د. فكري أحمد سنجر : **القانون الدولي الاقتصادي** ط 1 : 1984 ـ المطبعة الإقليمية مراكش ص ص. 108-109.

وهذا كله سيعرف التحول في ظل العولمة وتأثيراتها على الأفراد والشعوب والدول وعلى الصعيد المحلي والجهوي والدولي جميعا.

فعلى صعيد العلاقات الدولية يعتبر كثير من الدارسين والمتخصصين أن العولمة تمثل مرحلة جديدة من مراحل الإكراه والقسر الذي يمارس على دول الجنوب، ففي ظل النظام العالمي الجديد أصبح من المفروض على الدول الصغيرة والفقيرة تلقي التعليمات من الخارج حول ماذا عليها أن تنتج وماذا تستهلك وبأية مقادير وبأية أسعار، هذا الإكراه يمارس من خلال آليتين اثنتين، الأولى تتمثل في البنك العالمي وصندوق النقد الدولي والعديد من المنظمات الدولية المتخصصة بحيث تستغل هذه المؤسسات الدولية حاجة الدول الفقيرة إلى قروض لشراء احتياجاتها الغذائية أو للحصول على التكنولوجيا الضرورية للتنمية الاقتصادية فتفرض عليها شروطا تتعلق بإدخال تغييرات في أنظمتها الاقتصادية وهياكلها الإنتاجية وقوانينها المالية والضريبية، بل إنها تقوم أيضا بالضغط عليها لرفع الدعم عن السلع الأساسية والضرورية وزيادة الرسوم الضريبية مما يجعل حكومات هذه الدول في مواجهة مع شعوبها ويعرض استقرارها السياسي للخطر.

والآلية الثانية هي ما يسمى بالسلاح الغذائي وخاصة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وهو السلاح الذي أصبحت دول الجنوب مهددة به، فمن ناحية تكاد الولايات المتحدة الأمريكية تحتكر الفائض العالمي من الحبوب وتسيطر شركاتها على هذا القطاع إنتاجا وتوزيعا بحيث إن اعتماد الدول الفقيرة على المنتوج الغذائي الأمريكي أصبح عبئا اقتصاديا عليها لأنه يزيد من مديونيتها للولايات المتحدة الأمريكية ويؤثر على قرارها السياسي، ومن ناحية أخرى فإن الدول الفقيرة المنتجة لمحاصيل الحبوب لا تستطيع منافسة المنتوجات الأمريكية المدعومة والعالية الجودة وهو ما يضطر العديد من دول الجنوب إلى التحول إلى زراعات بديلة كالورود والأعلاف وتحويل الأراضي الزراعية إلى مراع، وهو ما يزيد من تبعية هذه الدول وقابليتها لأن يستخدم ضدها السلاح الغذائي[8].

---

(8) انظر : د. عبد الواحد الناصر : المشكلات الدولية الكبرى ص. 210-211.

كل هذا أدى في نظر الدارسين إلى نتيجة خطيرة هي انحسار مبدأ السيادة وتراجع دور الدولة التي بدأت تنحصر مهمتها في إلغاء القيود على السوق وميادين الاستثمار وتشغيل رؤوس الأموال ومحاربة الفساد والبيروقراطية، وهكذا قامت حكومات بلا سلطة حقيقية فيما يتعلق بميادين الاقتصاد والاستثمار وانتقال رؤوس الأموال، وهذا ما دفع البعض إلى القول بأن الوظائف السيادية التي تتمتع بها الدول منذ نشأتها أصبحت تنتقل إلى هيآت ومنظمات أخرى تتحكم فيها مجالس إدارة الشركات العالمية الكبرى المتعددة الجنسيات والتي يديرها المسؤولون عن العمال والمتصرفون في شؤون المال على الصعيد العالمي وحجتهم الأساسية في ذلك هي تعاظم نفوذ هذه الشركات التي لا تعترف بالسيادة الوطنية ولا بالحدود الجغرافية أو السياسية بحيث يتكثف نشاطها ويمتد نفوذها على حساب وظائف الدولة السيادية[9].

إن الانفتاح على السوق المالي العالمي الذي أجبرت عليه الدول بدعوى أنه ينسجم مع المصلحة العامة الكلية فرض عليها التنافس في تخفيض الضرائب وتقليص الإنفاق الحكومي وخصخصة مشروعات الدولة والتضحية بالعدالة الاجتماعية كل ذلك أتاح دخول وخروج الأموال على نطاق واسع وبالمليارات على نحو جعل السلطة النقدية تقف عاجزة عن الدفاع عن أسعار الصرف والفائدة وأسعار الأوراق المالية في البورصات، وهكذا تحول العالم حسب تحليل مؤلفي كتاب "فخ العولمة" إلى رهينة في قبضة حفنة من كبار المضاربين الذين يتاجرون بالعملات والأوراق المالية مستخدمين في ذلك مليارات الدولارات التي توفرها البنوك وشركات التأمين وصناديق الاستثمار الدولية وصناديق التأمين والمعاشات، وقد أشار المؤلفان في هذا السياق إلى عدد من الحالات والأزمات التي سببها هؤلاء المضاربون والتي أصبحت تشير إلى مقدرتهم الفائقة على التحكم في رفاهية أو فقر أمم ودول برمتها دون أن توجد أي سلطة محلية أو عالمية لمحاسبتهم أو ردعهم[10].

---

(9) المرجع نفسه، ص. 206.

(10) فخ العولمة، ص. 12.

فهل أصبحت الدول الفقيرة في قبضة هذه اللوبيات المالية المنتشرة هنا وهناك من بلدان العالم الغني ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما موقع الولايات المتحدة الأمريكية التي هي صاحبة مشروع العولمة في هذا المجال ؟

الواقع أن الولايات المتحدة الأمريكية رغم ما تعانيه من مشاكل وتحديات على الصعيد الداخلي وإخفاقات على الصعيد الخارجي فإنها تبقى القوة العظمى الوحيدة في عالم اليوم وذلك لكون الدول الأخرى المرشحة للصعود إلى مرتبة القطب الدولي مثل اليابان والصين والمجموعة الأوروبية ينقصها الكثير من العناصر والمقومات التي تؤهلها لذلك، وبشكل أكثر دقة يمكن القول بأن النظام الدولي يتسم في هذه المرحلة من تطوره بتعددية قطبية على الصعيد الاقتصادي وأحادية قطبية على الصعيد الاستراتيجي والعسكري، يؤكد هذه الصورة ما غدا معروفا عن الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص من توظيفها للشرعية الدولية والأمم المتحدة فيما يخدم سياستها الخارجية وتطبيقها معايير مزدوجة في التعامل الدولي.

الحديث عن هذه القضية يدفعنا إليه وضوح التناقض المكشوف بين ما تضمنته أطروحة النظام العالمي الجديد من بنود وعناصر تلوح منها مبادئ الموضوعية والعدالة في مجال العلاقات الدولية كاحترام القانون الدولي وتسوية المنازعات بين الدول بالطرق السلمية وتفعيل دور الأمم المتحدة في حفظ الأمن والسلم الدوليين وبين ممارسات الولايات المتحدة الأمريكية المتسمة بالازدواجية المذكورة وهو الأمر الذي يجعلها مصدرا للتوتر وعدم الاستقرار في العالم، لأنه يؤدي من ناحية إلى إضعاف صدقية توجهها وسياساتها على الصعيد العالمي كما يؤدي من ناحية أخرى إلى خلق وتدعيم قوى وتيارات رافضة لسياستها في مناطق عديدة من العالم.

إن ما تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية اليوم على شعوب العالم عن طريق استخدام قوتها السياسية والاقتصادية والعسكرية لإملاء شروطها وتجاوزها لاتفاقيات تحرير التجارة وأحكام القانون الدولي وأصول الشرعية الدولية إضافة إلى تصريحات مخططي السياسة الخارجية فيها بأن يكون القرن 21 قرن الهيمنة أو الإمبراطورية الأمريكية وأمور أخرى كثيرة تدل على أن العلاقات الدولية

حسب مفاهيم العولمة مبنية على حقائق أخرى لا علاقة لها بالشعارات الشائعة وبالدعاوى المزعومة، وأن فلسفتها مستمدة من آراء توماس هوبس[11] التي ترى أن الإنسان ذئب للإنسان وأن الكل في حالة حرب ضد الكل وأن لا شيء يحمل الدول على الاجتماع والتعاون، وهي الفلسفة التي تسير بموازاة مع مبدإ نهاية التاريخ وتوقفه عن التطور نحو حضارة أرقى وأن لا بديل في العالم أجمع عن الحضارة الأمريكية ونظامها الرأسمالي الصرف، وبالتالي فعلى دول العالم الخضوع صراحة أو ضمنا لإرادة سلطتها المركزية.

بهذا المعنى فإن العولمة بشكلها الحالي وقواعدها المعاصرة مشروع أمريكي بحت لا يستثني من مكاسبه الكثير من البلدان النامية والغالبية العظمى من دول القارة الإفريقية فحسب بل ويرمي إلى العودة بالعالم إلى العصر الاستعماري وترسيخ الهيمنة على خيرات الشعوب ومقدراتها، وتكمن أركان هذا المشروع على سبيل المثال لا الحصر في السيطرة على الموارد البترولية في العالم وفي الهيمنة على حقوق براءات الاختراع والملكية الفكرية وفي التحكم بوسائل الاتصالات الدولية وفي احتكار إنتاج البذور الزراعية المعدلة جينيا باعتبار أن احتكارها يمكن الولايات المتحدة الأمريكية من السيطرة على إنتاج المواد الغذائية في العالم أجمع.

واعتبارا لهذه المعطيات يحذر كثير من الباحثين في الدول الغربية قبل غيرهم من التصديق بالشعارات التي تطلقها الولايات المتحدة الأمريكية في علاقتها بالدول وخاصة دول العالم الثالث، ومن هذه الشعارات شعار التنمية على سبيل المثال، فالباحث Gilbert Rist وهو أستاذ بالمعهد الجامعي للدراسات حول التنمية بجنيف يعتبر أن مفهوم التنمية حديث عهد جدا ويبرز بعد توضيح أن ظهوره كان لأول مرة ضمن الخطاب المؤسس لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية هاري ترومان عام 1949 أن تحديد هذه التنمية يتماهى مع الخطاب الديني التبشيري الذي يخدم المصالح الخاصة للدولة الأكثر قوة في العالم[12].

---

(11) Hobbes Thomas فيلسوف إنجليزي 1588-1679.

(12) في مقاله ابتداع التنمية l'invention du développement المنشور بمجلة l'écologiste vol 2 n° 4 انظر المنعطف ع 23-24/1425-2004 ص. 31.

إن التنمية في زمن العولمة غدت على هذا الأساس وسيلة لنهب الثروات الطبيعية والبشرية للبلدان المتخلفة وعرضها بأثمنة بخسة على أبواب الشركات العابرة للقارات وذلك عن طيب خاطر وعن قناعة بنجاعة الطريق الذي تسلكه، فالخطاب الذي يقدم لهذه الدول يقوم على أساس إيهامهم بأن اعتماد مشروع التنمية كفيل بأن يجعلهم على قدم المساواة مع الدول المتقدمة وبأن الوصول إلى مصاف الدول الغنية هو غاية التنمية شريطة الاستمرار في نفس الخط والاتجاه واعتماد نفس الأسباب والأساليب، مع أن الإحصائيات العلمية تشير إلى أن المسافة التي كانت تفصل البرازيل أو المكسيك عن خط الوصول إلى هذه الدول سنة 1950 تقدر ب 20 أو 25 سنة، أما اليوم فتقدر بقرن من الزمن، وإذا أراد بلد مثل موريطانيا أن يدخل حلبة السباق فسيحتاج إلى 3000 سنة للاصطفاف في خط الوصول مع الدول الغنية.

نستخلص من كل هذا في نهاية هذا العرض أن عالم اليوم غير متكافئ وأن الفوارق بين دوله كبيرة بل صارخة ولا تزال في اتساع وتمدد، وأن الجديد في القضية ليس هو هذا وإنما هو سعي الدول الغنية إلى السيطرة على الدول الفقيرة والمتخلفة بناء على فلسفة واضحة ومحددة ومن خلال آليات دولية كان الهدف من إنشائها في الأصل ضبط العلاقات الدولية وإدارتها بمقتضى مبادئ السلم والعدالة والحفاظ على الشرعية الدولية.

وبناء على ذلك نسجل بأن العولمة على صعيد العلاقات الدولية باتت تعني صورة جديدة من صور التحكم والاستبداد الذي تنوي الولايات المتحدة الأمريكية بصفتها أكبر قوة في العالم ممارسته على الدول المتخلفة، وأن كل الشعارات التي ترفعها هذه السلطة تحتاج على الأقل إلى بحث مدى مصداقيتها إذ هي لا تعدو أن تكون مجرد إبهام وخداع.

العولمة والأسرة

ميلودة شم

كلية الحقوق. الرباط

إن الفكر المؤسس للأزمة الحديثة متعدد ؛ وتمت أفكار سادت الغرب متطرفة لا تلخص هذا الفكر منها الفكر الماركسي والفكر التحرري اللذان ظهرا آخر الستينات وبداية السبعينات. وهي آراء هيمنت في مرحلة معينة بفعل تأثير الإعلام، تدعو إلى إلغاء الأسرة كوحدة اقتصادية واجتماعية، ومن أصحاب هذا الفكر أنجلز الذي اعترف بهذه الحقيقة بقوله : "الأسرة منذ تاريخها البدائي في الزمن القديم وهي آخذة في التقلص التدريجي عن طريق التضييق المستمر لدائرتها. فقد كانت هذه الدائرة تحتوي في الأصل على القبيلة بأسرها، وفي إطارها كان للجنسين علاقات زواجية، ثم بدأت عملية الاستبعاد تأخذ مجراها، فذهب من الأقارب أبعدهم أولا ثم ذهب أدناهم.. حتى الأقارب بالزواج.. وتصل الدائرة في ضيقها بحيث يصبح الاجتماع في علاقة زواجية مستحيلا من الناحية العملية.. وفي الختام لا يبقى سوى الفرد وحده مع علاقة سائبة (بالجنس الآخر).. وبهذا الانحلال يتوقف الزواج"[1] ثم يمضي فيقول : "سيصبح من الواضح أنه لكي يتم تحرير النساء لابد من تحقيق الشرط الأول لذلك وهو إدخال جميع النساء في النشاط العام، وهذا يعني إلغاء الأسرة المنعزلة كوحدة اقتصادية اجتماعية.. وبتحويل وسائل الإنتاج إلى الملكية العامة تتوقف الأسرة عن أن تكون الوحدة

(1) أنظر "فردريك أنجلز" Friedrich Engles : The origin of the Family. نقلا عن الإسلام بين الشرق والغرب لعلي عزة بيجوفيتش، ص ص. 256-257.

الاقتصادية للمجتمع، وتصبح إدارة البيوت صناعة اجتماعية. فتعليم الأطفال والعناية بهم يصبح شأنا من الشؤون العامة.. ويرعى المجتمع جميع الأطفال بالتساوي، سواء كانوا أبناء شرعيين أو غير شرعيين"[2].

ومن أصحاب هذا الفكر كذلك بعض التيارات النسائية ؛ من نشيطاتها بفرنسا وخارجها الكاتبة الفرنسية "سيمون دي بوفوار" الصريحة في رأيها حيث تقول : "ستظل المرأة مستعبدة حتى يتم القضاء على خرافة الأسرة وخرافة الأمومة والغريزة الأبوية"[3].

وفي المقابل أفكار أخرى تؤكد أن أحد المحاضن لقيم المجتمع الحديث هي الأسرة مثل فكر هيكل.

لكن الدراسات والأبحاث التاريخية والسوسيولوجية[4] أثبتت أن الأسرة الغربية الصغيرة ليست منقطعة الجذور، وأن الفارق بين الإيديولوجيا الماركسية والترويج الإعلامي وبين المسار الفعلي للأزمة الحديثة أثبت أن الأسرة غير قابلة للمجاوزة[5]. لكن الترويج الإعلامي لبعض الأفكار دون أخرى ضخم بعض المظاهر وأبرزها وكأنها هي الواقع السائد، وصادر معنى الحداثة ومارس الوصاية الفكرية على الغرب ؛ فسادت موجات إيديولوجية هيمنت وأثرت على المواثيق الدولية.

فلم تكن الدعوة إلى القضاء على الأسرة فقط بل فعلت تلك الرؤى الفلسفية بمراحل تبدأ بتكييف اهتمام وسائل الإعلام، وتسليط الضوء عليها حيث يثور الاهتمام العام بها، فتصل إلى مصاف الاحتياجات الاجتماعية الدولية، وبالتالي

---

(2) نفسه.

(3) لقاء مع "سيمون دي بوفوار" في مجلة New York Magzine Saturday Revien. نقلا عن كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب".

(4) أنظر مثلا "la famille incertaine" Louis Roussel

"Sociologie de la famille" Martine Segalen

(5) ظهور تيارات تدافع على الوفاء في الأسرة.

يبدأ النقاش العام حولها في مختلف بلدان العالم، وبذلك تبدأ المرحلة الأولى من مراحل تشكيل الرأي العام الدولي.

ثم تأتي المرحلة الثانية من مراحل صياغة قواعد كونية تحكم السلوك البشري والعالم كله في كل مجالات الحياة : الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، عبر المؤتمرات الدولية للخروج بمواثيق واتفاقيات تكون ملزمة للبلدان التي تصادق عليها، ثم يتم الضغط الدولي على المستويين :

- الضغط على الدول التي لها تحفظات على بعض البنود لرفع تحفظاتها[6].
- الضغط على الدول التي لم توقع عليها أصلا ليتم التوقيع والتصديق عليها.

وفي هذا الإطار يتم تدويل قضايا المرأة، عبر تسييسها، واستخدامها كورقة ضغط على الأنظمة والدول التي تقاوم النمط الحضاري الغربي، سواء أكانت مقاومة على أسس دينية عقائدية، أو أخلاقية فلسفية، أو اجتماعية اقتصادية[7].

المواثيق الدولية :

ومن أهم هذه المواثيق وثيقة : "القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة" التي تعد ثمرة المواثيق التي سبقتها ومحور كل المؤتمرات التي تلتها وثيقة القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة.

تدعو الوثيقة إلى المساواة المطلقة في الحقوق بين الرجل و المرأة في جميع الميادين : السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والمدنية. كما تدعو الوثيقة إلى إلغاء كافة القوانين والأعراف والممارسات التي تشكل تمييزا ضد المرأة ؛ وذلك باتخاذ جميع التدابير بما في ذلك التشريع. وبذلك تضع الاتفاقية نفسها في مصدر أعلى من مصادر القانون عند أعلى مجتمعات العالم.

---

(6) تحفظت بعض الدول العربية والإسلامية على بعض البنود التي تتنافى مع الدين أو العرف منها المغرب والأردن والعراق والكويت وليبيا وأندونيسيا وباكستان وماليزيا.

(7) رؤية نقدية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة CEDAW، ص ص. 8-9.

ولعل العيب المحوري في هذه الاتفاقية هو التناقض بين النص على مراعاة الخصوصيات الحضارية والثقافية والقانونية والنصوص التفصيلية التي تؤكد معايير نمطية يراد تطبيقها على جميع البشر بدون مراعاة هذه الخصوصيات. فإذا كان النص على مبادئ الوثيقة مناسبا على مستوى العالمية، فإن تحديد الصور والوسائل التطبيقية متنوع بطبيعته وفقا للخصوصيات الحضارية والثقافية والقانونية، وتنميطه واستخدامه على مستوى العالمية فيه إهدار لكل المبادئ المتعلقة باحترام التنوع الديني والثقافي، وسيادة الدول، وحق الشعوب في تقرير المصير، والتي نصت عليها المواثيق الدولية[8]. وقد تبين علميا أن فشل كثير من برامج الأمم المتحدة يعود إلى عدم مراعاة الخصوصيات الحضارية.

وتشمل الوثيقة بنود خاصة بالأسرة وهي أخص خصائص المجتمعات والشعوب لاعتمادها على خصوصيات دينية وحضارية وثقافية، ومن أهم أهدافها تعديل الأنماط الاجتماعية لدور كل من الرجل والمرأة[9]. فمثلا المادة 16 الخاصة بالأسرة تدعو إلى منح المرأة والرجل نفس الحقوق والمسؤوليات على قدم المساواة في عقد الزواج وفي أثنائه وعند فسخه، وكذلك في القوامة والولاية على الأبناء وذلك يتعارض مع قاعدة ولي الزوجة عند عقد الزواج، ومع المهر، وقوامة الرجل على المرأة في الأسرة، وتعدد الزوجات، ومنع زواج المسلمة من غير المسلم، وأحكام الطلاق والعدة، وعدة الوفاة، وحضانة الأولاد. فهي مادة تمس الأسرة كمؤسسة ونظام قيم ونمط حياة.

وتأتي وثيقة بكين لتفصل أهداف هذه الوثيقة إذ نجد أن أخطر بنودها يتلخص في :

1 - الإقرار بتعدد أشكال الأسرة واستبدال لفظ أسرة بأسر ليضم كل علاقة بين رجل و امرأة دون زواج أو امرأة وامرأة أو رجل ورجل.

---

(8) في مقدمتها ميثاق الأمم المتحدة مادة (103).

(9) المادة (5).

2- إقرار الشذوذ الجنسي.

3- عدم اعتبار الزواج الوسيلة الوحيدة لإنجاب الأطفال وذلك باعتماد التلقيح الصناعي وتأجير الأرحام ونحو ذلك.

4- الدعوة إلى الإباحية والتفكك الأسري :

أ - الحرية الجنسية بين المراهقين، وعدم اعتبارها خطأ من جهة القانون، بل مساعدتهم لتفادي الأمراض المتنقلة جنسيا تقول الفقرة (ز) ص 57 الاعتراف بالاحتياجات المحدودة للمراهقين وتنفيذ برامج مناسبة محددة مثل تقديم المعلومات بشأن قضايا الصحة الجنسية والإنجابية وبشأن الأمراض التي تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي بما فيها الأيدز والاعتراف بحقهم في الخصوصية والسرية.

ب - حق المرأة في الإجهاض وذلك برفع العقوبة عنها ومساعدتها وتوفير الظروف الملائمة لها.

ج - رفض الزواج المبكر واعتباره اغتصابا وتعسفا وهمجية في الوقت الذي تدعو فيه الوثيقة إلى إزالة كل العوائق أمام الفتيات الحوامل.

د - اعتبار السلطة الأبوية مظهر من مظاهر التخلف وعائق رئيسي في وجه تقدم المرأة وتطورها.

ذ - الحط من قيمة عمل المرأة داخل البيت واعتباره عمل غير منتج.

ر - المساواة بين الرجال والنساء في الإرث.

ولا يخفى على أحد أن ما وصلت إليه الأسرة هو ثمرة ونتيجة الاتجاه الذي مضت فيه المجتمعات اليوم ؛ فقد تمركزت اهتمامات كل مؤسسات المجتمع حول تفعيل بنود تلك المواثيق الدولية.

فاتجه الإعلام نحو تطبيع المجتمع على بنودها ؛ من الرسوم المتحركة إلى المسلسلات المدبلجة التي تسعى جاهدة عبر موضوع واحد هو الإثارة بين الذكر

والأنثى، والإباحية، والخيانة الزوجية ثم التطبيع على استساغة الأطفال الغير الشرعيين إلى أن تحدد العلاقات الإنسانية في الصراع بين الجنسين. إلى الفن المائع (Vidéo clip) الذي يعد غالبه أخطر رسالة لتمييع الأخلاق حتى أصبح موضوع الأغنية هو الإثارة والعلاقة العاطفية إلى درجة الذوبان في هذا الموضوع فيخيل للمرء أنه يعيش به ولأجله. والأخطر من هذا هو تنظيم برامج فنية (Studio 2M, Stard Academy) تشجع على الاختلاط بين الشباب إلى حد التطبيع على الانحلال الأخلاقي.

كما سعت مؤسسات المجتمع إلى التقليل من شأن عمل المرأة داخل البيت حيث يُنص في بطاقة التعريف أن وظيفتها : بدون. والرفع من شأن عملها خارج البيت وإن اقتصر عملها أحيانا على النظافة، في حين عملها داخل البيت يتضمن مجموعة من الوظائف : مربية - ممرضة - معلمة - مستشارة - مقتصدة.

- عدم مراعاة تماسك الأسرة أثناء تعيينات الموظفين، وعدم تسهيل التحاق الزوجة الموظفة بزوجها، أو تعيين الفتاة في أماكن بعيدة عن أهلها ومحيطها.

- بناء دار الطالب والطالبة في البوادي بعيدا عن القرى أدى إلى استئصال الفتى والفتاة عن دويهما في سن حرجة بدل تعبيد الطرق وتقريب المدرسة من القرية.

فالضغوطات التي مورست على الأسرة منها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية أدت إلى ظهور إشكالات خطيرة ومتعددة في تزايد مستمر لم تستطع حتى الدول المتقدمة صناعيا تجاوزها، منها :

1 - ظهور التفكك الأسري.

2 - تدهور الدور الأساسي للمرأة داخل البيت (الأمومة..).

3 - تدهور العلاقة الزوجية (استنزاف طاقة الزوجين في العمل خارج البيت جعل العلاقة غير مرضية إن لم تصبح متنافرة..).

4- الدور التربوي أصبح بيد الخادمة والإعلام والشارع.

5- تدهور العلاقة بين الآباء والأبناء أدى إلى تفلة سلطة الآباء على الأبناء.

6- اعتماد كل أفراد الأسرة- في الغالب- على الخادمة، جعل البيت ملجأ للراحة فقط (فندق).

7- زيادة نسبة الطلاق.

8- تراجع نسبة الزواج.

9- شيوع المراكز التي تضم الأمهات العازبات والأطفال الغير الشرعين.

10- تزايد الوافدين على دور المسنين.

11- فقدان الذوق الجمالي لدى الشباب (Hip Hop).

12- فقدان معايير الرجولة؛ أصبح مفهومها ينحصر في إبراز العضلات والاهتمام بالمظاهر لإثارة الآخر.

13- فقدان المعاني السامية للأنوثة أولها العطاء الإنساني والعاطفي والإحساس المرهف.

14- تدهور اقتصاد الأسرة؛ تزايد مصاريفها: الدروس الخصوصية- دور الحضانة- المدارس الخاصة- الخادمة- البحث عن العيش الرغيد... حتى تحولت إلى أسرة استهلاكية أكثر مما هي منتجة وفعالة.

15- التباعد بين الأجيال.

16- زيادة نشاط شبكات الفساد من مروجي المخدرات وغيرهم، حتى طالت الأطفال في سن مبكرة جدا وذلك في غياب الحماية الأسرية والإعلامية والتعليمية.

17- انحراف الشباب ذكورا وإناثا.

إن المواثيق الدولية تعسى جاهدة إلى إلغاء كل الأحكام الجوهرية للأسرة التي سارت عليها الأمم لعصور طويلة من الزواج والولاية والحضانة وغيرها. فهي أحكام تعتبر المعالم الأساسية لبناء الأسرة المتماسكة والفعالة ؛ فالزواج حفظ للضروريات الخمس من الدين والنفس والعقل والمال والنسل، والولاية والحضانة حفظ وصيانة للضعيف.

إذا كان شعار هذه المواثيق "التنمية، المساواة، السلم" فهل ما وصلت إليه المجتمعات يجسد فعلا هذه الشعارات ؟

ملاحظات نقدية :

ثبت تاريخيا وواقعيا أن الأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع ؛ إذ عندما فسدت فسد المجتمع فالإنسانية، كما ثبت الدور العظيم والخطير الذي تؤديه المرأة داخل الأسرة ؛ إذ إهمال هذا الجانب أدى إلى تفكك الأسرة فالمجتمع.

كما ظهر الأثر العميق التربوي والاقتصادي والاجتماعي لدى كل من الإعلام والشارع في الأسرة.

وتبين كذلك أن المسار الذي مضت فيه الإنسانية لم يكن أساسه علميا ولا واقعيا ؛ فإذا كان الشعار الأول للمواثيق الدولية هو "التنمية" فما مفهومها ؟ فإن كانت تعني الزيادة والتزكية والقوة، فإن تنمية الإنسان تعني زيادة وتزكية وتقوية قدراته العقلية والنفسية والفكرية والجسدية، وكذا تقوية علاقاته الإنسانية ؛ أي توجيه قدراته في اتجاه إيجابي فيه مصلحته ومصلحة المجتمع فمصلحة الكون الذي يعيش فيه "قد أفلح من زكاها"[10].

فكل ما يتنافى مع فطرة الإنسان فلا يدخل في خانة التنمية، وهذا يقتضي منا معرفة من هو هذا الإنسان ؟

---

(10) سورة الشمس، الآية 9.

فلا وجود لتشريع عالمي يتنافى مع فطرة الإنسان لأنها هي القاسم المشترك بين البشر ؛ فما ساوت فيه الفطرة بين البشر فالأحكام والقوانين متساوية وما اختلفت فيه الفطرة فالأحكام مختلفة[11]. وهذا ينطبق على الشعار الثاني "المساواة" إذ المساواة القسرية تعتبر عنف ضد الإنسان ومخالفة لما تقتضيه فطرته فهلاكه.

أما الشعار الثالث "السلم" فالسلام هو الانسجام والسعادة.. ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا انسجمت ثقافته وتشريعاته مع فطرته.

والخلاصة هي على الأفكار والرؤى أن تطرح للتحليل العلمي والواقعي قبل فرضها قانونا.

وبناء عليه، فإن على جميع مؤسسات المجتمع السير في هذا الاتجاه، ومراجعة كل الرؤى والفلسفات فالتشريعات لتوجيهها في إطار بناء الإنسان وتنميته الحقيقية.

---

(11) أنظر أصول النظام الإجماعي في الإسلام لطاهر بن عاشور، ص. 144.

فهرس المراجع

- "الإسلام بين الشرق والغرب" لعلي عزت بجوفيتش.

- "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" للطاهر بن عاشور.

- "رؤية نقدية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة" عن الاجتماع العام المنعقد بمقر اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل لمناقشة الاتفاقية أيام 2000/8/2 - 10، 18، 2000/9/25.

- "la famille incertaine" Louis Rouss.

- "Sociologie de la famille" Martine Segalen.

موقع الخصوصيات الثقافية
في ظل العولمة وأثره على الاجتهاد

عبد الكريم عكيوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير

إن تناول الباحث المسلم موضوع العولمة بالبحث والتحليل، إما على جهة العموم، أو من جهة المقارنة، أو على جهة التأصيل أو النقد والتحليل، تحفه محاذير كثيرة. وأول هذه المحاذير أن الكلام في "العولمة" كلام في موضوع لا حد له ولا ضابط، ولا تعريف له يوضح معالمه من غير إشكال ولا التباس، وإنما اصطلاح "العولمة" يستعصي على البيان والتحديد، فكيف يمكن البحث في ما لا حد له ولا ضابط !؟ ثانيا : إن الباحث المسلم وهو يتكلم في هذا الموضوع، يتصور نفسه تابعا مقلدا، مرددا لاصطلاح ليس له يد ولا رأي في وضعه ولا صياغته، وإنما هو اصطلاح ألقي به فجأة وصارت تتداوله وسائل الإعلام وتروجه وسائل الاتصال وتركب عليه كل قضايا البشر في أحوالهم الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية. ومما يزيد من هذا الحذر أن "العولمة" التي تقدم الآن على أنها نظام عالمي يحكم العلاقات الدولية وتخضع له حياة البشر ويبشر بنظام للعلاقات الإنسانية، قد سبقها ظواهر مشابهة قدمت على هذه الصفة، ولم يتحقق من وعودها الجميلة شيء. من ذلك مثلا مسألة "التسامح" و"حقوق الأقليات" الذي شاع في القرن التاسع عشر الميلادي مقترنا بالتدخل الغربي في العالم الإسلامي، وتم من خلاله اقتحام أجزاء كثيرة من الدولة العثمانية. ومن ذلك أيضا أصل "الحداثة" ثم "ما بعد الحداثة". ومما يلاحظ أيضا على هذه المصطلحات أنه كلما ظهر أحدها تناولته الأبحاث والدراسات في العالم العربي

والإسلامي من جهة التأييد أو من جهة النقد والمعارضة، ثم لا يلبث أن يظهر مفهوم آخر فتنصرف إليه المناقشات أيضا ؛ فلا المفهوم السابق حصل عليه اتفاق أو شبه اتفاق، بل لم تتضح معالمه بعد، ولا المفهوم اللاحق كذلك، فيبقى الاضطراب والفوضى في الأفكار، وهذا نفسه ما يحصل الآن مع مفهوم "العولمة". ثالثا : إن "العولمة" في معناها وفي آثارها لم يحصل عليها اتفاق بسبب غموض أهدافها ـ حتى في موطنها الأصلي وبين أهلها وأصحابها ـ فكيف يقدم هذا "المفهوم" كأنه أصل مقرر ومبدأ واضح راسخ بلا اعتراض ولا خلاف، والحال أن في البلاد الغربية ـ وهي موطن العولمة ـ لا يحصى كم من الهيآت والجمعيات وما يسمى بمؤسسات المجتمع المدني، تعارض "العولمة" معارضة شديدة، وخاصة في شقها الاقتصادي. والدليل على ذلك ما يصاحب جميع المؤتمرات في موضوع "العولمة"، خاصة في شقها الاقتصادي، من مظاهرات قوية تفصح عن رأي جزء كبير من المجتمعات الغربية ومعارضتها لفكر "العولمة". فهذه كلها محاذير تجعل الباحث المسلم يشعر بأسف يكتنفه وألم يحفه وهو يتناول "العولمة" بالبحث والنظر.

لكن مما قد يهون من هذه المحاذير، أن "العولمة" ـ في الحقيقة ـ ليست أمرا جديدا ولا نظاما مستحدثا، وإنما هو اختلاف مسميات وتعديل وسائل، ولكن الغايات والأهداف لم تتناولها المراجعة. ثم إن "العولمة" يتناولها الباحث كما يتناول أي ظاهرة فكرية بشرية، فينظر إليها على أنها حالة عارضة مما يعرض للبشر، من غير أن يزيد على ذلك، حتى لا تؤول "العولمة" ـ كما أريد لها ـ دينا وعقيدة لا تتناولها المراجعة حتى قال بعضهم "إن العولمة قدرنا"، وهذا نزع للقضاء والقدر من موضعه وأصله وتسليمه "للعولمة" واتخاذها دينا لا يجوز مخالفته ولا مراجعة شيء منه.

والغرض في هذا المقام بيان الواقع المرتقب ـ الذي بدأت تظهر بعض معالمه ـ للثقافات المختلفة والأفكار البشرية المتنوعة في ظل فكر "العولمة"، وما يتفرع عن ذلك من الآثار على الاجتهاد الشرعي الإسلامي.

1- علاقة الاجتهاد بالعولمة

إن المقصود بالاجتهاد هنا، ما ثبت عند علماء الإسلام من مباحث النظر في الخطاب الشرعي من أجل فهمه واستيعاب مراده، ثم من أجل تنزيله على محله والعمل به. فهو عملية التشريع ووضع الأحكام في قضايا الحياة المختلفة من منظور خاص وبمنهج خاص، يروم موافقة هذه الأحكام لنصوص معينة مخصوصة هي نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. والاجتهاد على هذا النحو لا يتوقف، لأنه ـ بسبب ارتباطه بحياة الناس في ما يعرض لها من أحوال التجدد ـ لا يمكن للمسلمين الاستغناء عنه ؛ فمادام على ظهر الأرض مسلم يرغب في موافقة أعماله وتصرفاته لأحكام هذه الشريعة، فإن الاجتهاد باق مستمر متجدد بتجدد الحياة.

وإن صلة الاجتهاد بالعولمة من جهة كون "العولمة" حالة عرضت للبشر في هذا الزمان، تتعلق بقضايا الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية، خلاصتها أن مجالات الحياة هذه يجب أن تكون على صفة مخصوصة عند جميع البشر ومنهم المسلمون. ولما كان الاجتهاد في الفكر الإسلامي يتعلق بالحياة العامة والخاصة، فإنه سيكون له مع "العولمة" شأن واتصال. فإذا كان خلاصة "العولمة" هي سيادة منهج خاص وحيد محدد المعالم، فكيف يمكن للاجتهاد أن يجد مكانه. فالعولمة أحكامها جاهزة أصلا موضوعة سلفا، وليس لأي نظر أو اجتهاد بعد ذلك سوى الموافقة، في حين أن الاجتهاد ينطلق من أصل عام كلي ويحتكم إلى مناهج البحث، ثم بعدها يضع الأحكام ويقرر النتائج. ولا شك أن نتيجة هذا الوضع العام الذي سبق وصفه للاجتهاد والعولمة هي التعارض والتصادم، لأن "العولمة" ـ على هذا الوصف ـ لن تقبل من الاجتهاد سوى قبول أحكامها والختم عليها. ومما يزيد المسألة إشكالا أن "العولمة" وهي تقدم على أنها منهج حياة وعيش وتفكير لجميع البشر، لا يد للمسلمين ولا لعلماء الإسلام في وضعها ولا في تقرير أحكامها وآثارها.

ولهذا فإن الاجتهاد يتصل بالعولمة من جهة مناهج التفكير وطرق اعتماد التشريعات ووضع القوانين التي تجري على تصرفات الناس وأعمالهم. ومعلوم أن اعتماد التشريعات ووضع القوانين قوي الصلة بما يسود المجتمع في نظامه العام وأعرافه وعاداته وقيمه الروحية. وإن مصادر التشريع في جميع بلاد العالم وعلى مر العصور، لا تخرج عن هذه القيم. ومعلوم أن عقائد البشر وأعرافهم تختلف، وهذا واضح راسخ، يعبر عنه بصيغ مختلفة مثل القول "بالخصوصيات الفكرية والثقافية" والقول بالثقافات المحلية التي توجد بالضرورة إلى جانب القضايا المشتركة العامة. وبناء على هذا فإن وجد من الناس من يروم إزالة الفوارق بينهم، ويقصد جمعهم على ثقافة واحدة وإلزامهم بمنهج واحد ووحيد في التفكير والحياة، فإنه يوصف بأبشع النعوث وتلصق به أخزى الصفات وأفحش التسميات. ومعنى هذا أن مسألة اختلاف البشر في مداركهم وأفكارهم وأفهامهم وطرق عيشهم، والقواعد والقيم المنظمة لعيشهم، حقيقة واضحة مقررة. فهناك اختلاف عام يتجلى في تعدد الملل وتنوع المذاهب الفكرية، وهناك اختلاف وتنوع أيضا في الحضارة الواحدة، وفي المجتمع الواحد والأمة الواحدة. وإن الاجتهاد كما عرفه علماء الإسلام ومارسه المجتهدون يأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار، فالأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتتغير بتغير العوائد والأعراف، والفتوى تقدر زمانا ومكانا، وتختلف أحكام أهل الإسلام عن أحكام غير المسلمين. وقد كان هذا معمولا به في العصور التي كانت لحضارة الإسلام وعلوم المسلمين صفة العالمية، وكان هذا أحد أسباب اكتسابها صفة العالمية.

وإذا سلمنا الآن أن "العولمة" لها السيادة، وأن العمل بمقتضاها أمر ليس منه بد، فكيف يمكن للاجتهاد أن يبقى على صفته ويلتزم مناهجه وطرقه المستقلة عن أي تأثير سياسي أو نحو ذلك، والحال أن "العولمة" تمنع صفة الخصوصية الثقافية وتريد أن تجمع البشر على فكر واحد وعيش واحد ومنهج واحد. فهذه هي القضية التي هي محل البحث والنظر عندنا : ما هو موقع الاجتهاد الإسلامي في ظل "العولمة" ؟ وكيف يمكن للاجتهاد أن يتناسب مع "العولمة" وهي سد جميع

أبواب الاجتهاد، وإن بقي شيء فإنما هو باب واحد لصنف خاص من البشر ؟ ولبيان ذلك لابد من تحديد موقع الخصوصيات الثقافية في ظل "العولمة"، لأن معرفة حال الاجتهاد الإسلامي ومكانه يتوقف على ذلك لأنه متفرع عنه.

2 ـ الخصوصيات الثقافية في ظل "العولمة"

إن المقصود بالخصوصيات الثقافية حالة التنوع الموجود في البشر باختلاف الأديان والملل والعقائد، وتنوع الحضارات والأعراف والعادات. وبسبب هذا الاختلاف اختلفت المجتمعات البشرية في طرق عيشها وفي القوانين والتشريعات التي تحكم معاملاتها. وإن حقائق التاريخ أثبتت أن أي نزاع أو اضطراب في أحوال البشر، إنما سببه وجود طائفة تريد أن تحمل غيرها على طريقة عيشها ومنهج تفكيرها، وأن الأمن العالمي والسلم والتعاون لا يحصل إلا إذا وطن كل إنسان نفسه هذه الحقيقة، وراعى كل مجتمع غيره، واستحضرت كل أمة أفكار غيرها وثقافاتها، مع وجود قدر مشترك من الأفكار هي محل اتفاق وموطن إجماع، على أساسها يكون التعاون، ويبقى لكل أمة حقها في طرق عيشها ومناهج حياتها. ومما يدل على هذا أيضا أن جميع المعاهدات الدولية والمؤسسات العالمية إنما تحظى باحترام جميع الأمم بمراعاة الخصوصيات الثقافية لجميع أمم الأرض. وسنقف على حقيقة هذا الأمر في ظل العولمة، من خلال حدود "العولمة" وتعريفاتها وتصورها، ومن خلال تعليقات أصحابها.

إن "العولمة"، وإن شاعت في الاستعمال اليومي للصحافة والإعلام، لم تدخل بعد تسميتها في المصطلحات العلمية، وذلك بسبب ما يحفها من الغموض في معناها وعدم التحديد في تعريفها، ولهذا ذهب البعض إلى وصفها بأنها حالة وليست مفهوما علميا، أي إنها حالة يعيشها الناس من خلال تطور المواصلات والاتصالات التي مكنت الناس من التواصل اليومي والآني، وما ترتب عن ذلك من سهولة انتقال الأفكار والمذاهب كما تنتقل السلع والخدمات، وتأثير هذا كله في غلبة النموذج الأقوى، الأكثر تمكنا من الصناعة والاقتصاد، وهو النموذج الغربي

في طرق التفكير وطرق العيش وكل قضايا الحياة الكلية والجزئية[1]. والخلاصة الجامعة للتعاريف التي وضعت للعولمة هي جعل العالم مجالا واحدا مفتوحا عن طريق الاقتصاد في التنمية، والتقنية في العلم، وشبكة المعلومات المفتوحة في الاتصال. أما الاقتصاد في التنمية فبدعوى أن التنمية البشرية والرقي إنما تتوقف على الاقتصاد الرأسمالي الذي يقوم على المبادلات الحرة والتعامل التجاري المتحلل من كل القيود، ولأن هذا التعامل التجاري إنما تتولاه الشركات العالمية الكبرى. فالشركات التي تتكفل بهذه التنمية لا تعمل إلا بمبدأ السوق بلا قيد، والتنافس بلا شرط، والربح بلا حد، في مجال حر مفتوح لا أثر فيه لمؤسسات ذات سلطة مثل الدولة أو غيرها.

وأما سيطرة التقنية في حقل العلم، فلأجل تلبية الحاجات الاستهلاكية التي يحتاجها السوق، وبحسب المشاريع التجارية والاقتصادية التي تضعها الشركات الكبرى. أي إن العلم إنما هو التقنية، والتقنية إنما لأجل المشاريع التجارية التي تستجيب لحاجات السوق، وإن البحث العلمي في الجامعات والمؤسسات إنما يخضع لشروط الحاجات الاقتصادية والتجارية. فضاقت بهذا حدود العلم وانحسرت مجالاته.

أما سيطرة شبكة المعلومات على الاتصال، فيأتي لخدمة ما سلف من الاقتصاد المفتوح والسوق الحرة ومنع كل المعوقات، وخاصة المعوقات الفكرية والمعنوية. فحرية السوق ليس فقط إزالة الحواجز لدخول السلع، وإنما أيضا إزالة الحواجز النفسية والفكرية التي قد تمنع الاستهلاك أو تقيده وتحد من حريته المطلقة بعد دخول السلع إلى السوق.

ويظهر بوضوح أن مراعاة الخصوصيات الثقافية غائب بالمرة. فجعل النظام الرأسمالي شرطا وحيدا للتنمية مع زيادة تقييده بالتحلل الكامل من القيود في المبادلات التجارية، وحرية السوق، كل ذلك حصر للفكر البشري وتجاهل لكل

---

(1) ينظر : ورقة د. علي جمعة في مؤتمر "الإسلام والعولمة"، ص. 131. (الدار القومية العربية).

الأنظمة المعمول بها أو التي يمكن العمل بها في المجال الاقتصادي بما فيها الرأسمالية الموجهة.

وأما حصر العلم في التقنية فتضييق لمجاله وتجاهل للثقافات الإنسانية المختلفة وحملها قسرا على ربط العلم بالقوى المادية وباللذة والمتعة. وأما التواصل المفتوح عبر شبكة المعلومات والاتصال المفتوح فهو أظهر من غيره، لأن الغرض منه منع معوقات الحرية التجارية ومعوقات الانتفاع والاستهلاك. وإن الثقافات العالمية والخصوصيات الثقافية المحلية اعتبرت عائقا يمنع حرية السوق ويضرب بحاجز بين أصحاب هذه الثقافات وبين السلع في السوق. فمثلا ثقافة "الأسرة" و"القوامة" وضبط علاقة الرجل بالمرأة في العالم الإسلامي، تعتبر عائقا لأنها تمنع قدرا كبيرا من النساء من دخول دورة الاستهلاك، وخاصة النساء البدويات، وهذا وجه ما لوحظ في السنين الأخيرة من دخول منظمات غربية إلى العالم الإسلامي تحت شعار خدمة العالم القروي، والمرأة القروية خاصة، عن طريق برامج "محو الأمية" وإنشاء "الجمعيات". فالمرأة البدوية لا يمكن أن تقرأ إعلانات الإشهار، ولا أن تستوعب الخطاب المضمن في المادة الإعلامية المقدمة التي تصنع لخدمة السوق وترسيخ ثقافة الاستهلاك. فهي ـ بسبب الأمية والثقافة السائدة في محيطها ـ لا صلة لها بمضمون "العولمة"، بل هي خارج "العولمة" وبعيدة عن سياق الاستهلاك، ولا يمكنها ـ وهي خاضعة لذلك ـ أن تستعمل سلع الزينة ومواد التجميل الكثيرة والمتنوعة. وهذا أيضا وجه هذا الركام الهائل من البرامج والقنوات الفضائية الخاصة بالمرأة بقصد تحررها من قيود الأسرة والأبوة وما يتصل بذلك من قيم اجتماعية. فإن قدرا كبيرا من السلع يتعلق بزينة المرأة وجمالها ورشاقتها ولباسها، وهي سلع لا تقف عند حد وإنما تتغير بتغير الفصول والشهور والأيام، فلا يمكن للمرأة في العالم الإسلامي في ظل ثقافة القيم السائدة والعفة، وثقافة الأبوة والأسرة والمعاشرة الزوجية، أن تستوعب هذا القدر من السلع إلا بأن تدخل في الهوس الاستهلاكي بلا قيود ولا حدود. فوجب لذلك قتل هذه الثقافة لأنها تشوش على السوق وتمنع الاستهلاك. ولهذا فإن ما

سمي بالتواصل والاتصال لم يكن سوى قذف للأفكار من جهة واحدة وتقديم لنموذج خاص من السلوك . يقول سيرج لاتوش في كتابه "**تغريب العالم**" تحت عنوان "الغزو الثقافي" : "ينطلق فيض ثقافي بمعنى فريد من بلدان المركز ويجتاح الكرة الأرضية. تتدفق صور، كلمات، قيم أخلاقية، قواعد قانونية، اصطلاحات سياسية، معايير كفاءة، من الوحدات المبدعة على بلدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام... ويتركز الجانب الأكبر من الإنتاج العالمي للعلامات في الشمال أو يصنع في معامل يسيطر عليها، أو حسب معاييره وموضاته... وهذا الفيض من المعلومات لا يمكنه إلا أن يشكل رغبات وحاجات المستهلكين، أشكال سلوكهم، عقليتهم، مناهج تعليمهم، أنماط حياتهم. وتعد هذه الدعاية الخبيثة "هبة" لا تقاوم، تشهد على الحيوية الطاغية للمجتمعات العالية التطور، لكنها تخنق كل إبداع ثقافي لدى الأسرى السلبيين للرسائل"[2].

فيظهر من خلال تعريف "العولمة" وتصور معالمها وتحليل طرق العمل فيها، أن هناك تجاهلا مطلقا للخصوصيات الثقافية. ونزيد الأمر وضوحا بإيراد شواهد علمية وعملية وشهادات صريحة من أصحاب "العولمة" وغيرهم من أهل الفكر في الغرب على أن الخصوصيات الثقافية لا أثر لها في "العولمة". ففي مجال اللغة مثلا وهي قدر مشترك بين جميع البشر، نجد تجاهلا كبيرا لخصائص لغات عالمية مشهورة متداولة مثل العربية، فيتم تصنيف اللغات البشرية إلى صنفين : لغات مركزية فاعلة كالإنجليزية، تؤثر في النظرية اللسانية بحجة "اكتمال نضجها"، ولغات هامشية كالعربية يجب أن تتأثر بالنظرية اللسانية وتخضع لها ولا يؤخذ بها في الحكم على النظرية أو تقويمها. وإذا تعارض مثلا وصف النحاة القدامى للغاتهم، كوصف سيبويه للعربية مثلا، مع وصف النظرية اللسانية المعاصرة للغة نفسها وجب تغليب وصف النظرية المعاصرة، ونعت صاحب الوصف القديم بالغفلة وقصور النظر"[3].

(2) "**تغريب العالم**"، ص. 27. ترجمة خليل كلفت. ط : 2-1999. مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء.

(3) "شروط إسهام الثقافة الإسلامية في بناء حضارة إنسانية" محمد الأوراغي. **مجلة المنعطف**، العدد 20 : 1423-2002، ص ص. 117-118.

وفي مجال الفلسفة والمذاهب الفكرية والاقتصادية فإن أظهر مثال يمكن أخذه فكرة ما سمي "نهاية التاريخ" التي أعلنها الكاتب الأمريكي فرانسيس فوكوياما في كتابه **"نهاية التاريخ والانسان الأخير"** حيث وضع أمام البشر خيارا وحيدا في التفكير ومنهج الحياة، وحصر ذلك كله في الثقافة اللبرالية. إنه يريد أن يفهم الإنسانية أن الخيار الوحيد لها في الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد محصور في النظام الرأسمالي، لأنه في هذا النظام وجد الإنسان كماله وحقق غايته، فهو نهاية التاريخ، وأن البشرية لن تجد نظاما أرقى ولا أكمل من النظام اللبرالي والفكر الرأسمالي وأن نهاية التاريخ مرتبطة به. ولا يخفى أن هذا قتل لجميع عقول البشر وإعدام لجميع الثقافات وسلب لحق التفكير والنظر على خلاف الفكر الرأسمالي. وإن فكرة "صدام الحضارات" وجه آخر من وجوه فرض الفكر الوحيد، لأن الإيمان بصدام الحضارات يفصح عن الرغبة في إعدام ما سوى الحضارة التي توصف بالعالمية. وإن صاحب فكرة "صدام الحضارات" قد أشار خاصة إلى الفكر الإسلامي وثقافة الشعوب الإسلامية وأفصح عن رغبة وعزم على إعدامها وعدم الاعتداد بها، ومثله قال عن الصين. ففي ندوة نظمتها اليونسكو (في دجنبر 1995) تحت عنوان «**الحرب والسلام في القرن 21**» يقول صمويل هنتنكتن : "في الربع الأول من القرن المقبل من المحتمل أن الصراعات الدولية ستكون مطبوعة بأربع مميزات أساسية : أولا : أغلب الصراعات بين الشعوب لن تكون ذات مصدر سياسي اقتصادي أو ايديولوجي بل ذات مصدر ثقافي. ثانيا : شكل الصراع العنيف والحاد سيكون نتيجة للحيوية الديموغرافية لدى الشعوب المسلمة التي تجعل من الإحياء الإسلامي أحد المميزات الأساسية للعالم المعاصر. ثالثا : أشكال الصراع الأكثر حدة ستكون ناتجة عن الحيوية الاقتصادية للدول الآسيوية وخاصة مع صعود الصين. رابعا : رغم أن الإحياء الإسلامي وتصاعد قوة الصين يشكلان تحديين مهمين للغرب وللنظام الدولي، إلا أنهما سيختفيان شيئا فشيئا مع نهاية الربع الأول من القرن 21"[4] ؛ ويقول أيضا تحت

---

(4) **"استراتيجية الدفاع عن الأمن الإسلامي"** إدريس الكتاني، ص. 12. ط 1 - 1418هـ - 1997م. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

عنوان "**الديموغرافية الزاحفة للبلدان الإسلامية**" : "في هذا العالم الذي يوجد في أوج تشكله، أرى أن مصدرين أساسيين للنزاعات وعدم الاستقرار السياسي : انبعاث الإسلام، وصعود الصين"[5]. وهذا كله صريح في عقيدة الفكر الوحيد، والمصدر الوحيد للفكر والثقافة وهو الغرب، وإن ما سواه من ثقافات سائر شعوب العالم لا اعتداد به ولا اعتبار. ففي اعتباره صعود الصين خطرا يهدد الأمن العالمي معنى ضمني هو أن الصعود ليس من حق هذا الشعب، لأن ثقافته وفكره ليست من الفكر الغربي، وكذلك ما سماه "الإحياء الإسلامي" فمعناه أن الكاتب يمنع على المسلمين ـ وهم نحو ربع سكان العالم ـ أن يستمتعوا بفكرهم وثقافتهم. فكل ثقافة غير الثقافة الغربية ـ تنمو ـ هي خطر على الأمن العالمي، أي أن أمن العالم متوقف، قسرا بالقوة وقطعا بالضرورة، على الثقافة الغربية، فليس لأي شعب من شعوب العالم حق في الركون إلى ثقافته والتفكير خارج دائرة الفكر الغربي. ومن القضايا المهمة أيضا التي تستحق التدبر من كلام صمويل هنتنكتن، ما اعتبره خطرا : من النمو السكاني في العالم الإسلامي وسماه "الديمغرافية الزاحفة للبلدان الإسلامية" وأضاف إليه "موجات هجرة المسلمين للبلدان غير الإسلامية". ومن هنا ندرك وجه الحملات الكثيرة في السنين الأخيرة على ثقافة الأسرة وأحكام الزواج، ونفهم وجه الإلحاح في الدعوة إلى تجويز الإجهاض، ومنع الزواج المبكر، واعتبار الزواج الشرعي قيدا على حرية المرأة، والدعوة إلى تحديد النسل والكف عن الولادة، والدعوة إلى العدول عن "الأسرة التقليدية" وتجويز الشذوذ. ولاشك أن هذا منع لجزء كبير من سكان العالم من التفكير والعيش من خلال قيمهم وثقافتهم.

ومن وجوه غياب الخصوصيات الثقافية في "العولمة" أن الهيآت والمؤتمرات الدولية المتفرعة عن "العولمة"، لا تقيم اعتبارا إلا للثقافة الغربية، فتصدر أحكاما وقرارات مستفزة لشعور كثير من شعوب العالم لأنها تعارض ثقافتها معارضة شديدة صريحة، بل فيها ما يعارض العقائد الإيمانية. ومعنى هذا أن دعاة "العولمة" يعتبرون هذه الثقافات في عداد الموتى، ولا يعيرون أي اهتمام للثقافات العالمية

(5) نفسه، ص. 13.

والخصوصيات المحلية. ففي مؤتمر السكان مثلا تم جعل قيم طائفة من الناس قيما عالمية لها السيادة على الجميع. فحمل المراهقات مثلا اعتبر حقا من حقوق الإنسان، والاجهاض أيضا، والزنا والعلاقات الجنسية خارج الزواج ولو في سن مبكرة حق من حقوق الإنسان، بينما الزواج المبكر جريمة ضد حقوق الإنسان. وواضح لكل منصف أن هذه الأمثلة تدل على تجاهل قوي وصريح للثقافات المتنوعة لجميع شعوب العالم ومنها الشعوب المسلمة.وأختم هذه الشواهد والشهادات بكلام مسؤول أمريكي، هو تعبير عن النظرة المعتمدة عند أصحاب العولمة. يقول دافيد روشكويف، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا ومسؤول سابق في حكومة كلينتون : "يذهب العديد من المراقبين إلى أن استغلال الفرص التي خلفتها الثورة المعلوماتية الكونية للترويج للثقافة الأمريكية على حساب الثقافات الأخرى هو شيء بغيض، لكن هذا النوع من النسبية أمر خطر بقدر ما هو خاطئ. إذ أن الثقافة الأمريكية تختلف جوهريا عن ثقافات ابنة بيئتها في العديد من المجتمعات الأخرى، فالثقافة الأمريكية هي مزيج من المؤثرات والمناهج من مختلف أنحاء العالم، وقد انصهرت ـ عن وعي في حالات عديدة ـ وسط واقع اجتماعي يسمح بازدهار الحريات الشخصية والثقافات. وإذ يدرك الأمريكيون ذلك فإنهم يجب ألا يخجلوا من القيام بما هو في مصلحتهم الاقتصادية والسياسية والأمنية، وبالتالي بما هو في مصلحة العالم ككل. ويتعين على الولايات المتحدة ألا تتردد في الترويج لقيمها. وفي سعيهم لأن يكونوا مهذبين أو سياسيين، ينبغي على الأمريكيين ألا ينكروا حقيقة أنه بين كل الأمم التي عرفها تاريخ العالم، فإن أمتهم هي الأكثر عدلا، والأكثر تسامحا وهي النموذج الأفضل للمستقبل... ويتعين على الأمريكيين أن يروجوا لرؤيتهم للعالم، لأن الفشل في القيام بذلك أو تبني موقف "عش ودع غيرك يعيش" يعنيان التنحي. فهل تبني قادة أجانب لنماذج تشجع النزعة والانفصالية والصدوع التي تقوض الاستقرار يمثل تهديدا لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية وللسلام الإقليمي وللأسواق الأمريكية ولقدرة الولايات المتحدة على القيادة ؟ نعم بالتأكيد. فالنسبية ليست سوى قناع يختفي خلفه هؤلاء الذين يتجنبون إمعان النظر. وسواء قبل الأمريكيون كل حجج هنتنكتون أم لا، فإنهم يجب أن يدركوا أنه كلما

اتسعت فجوات القيم الثقافية في العالم، كان من المرجح أكثر أن تتولد النزاعات، إذ أن الشرط الحيوي اللازم للحصول على المكاسب المثلى من التكامل الكوني يتمثل في التمييز بين السمات الثقافية التي يمكن ويجب التسامح معها ـ بل وتشجيعها حقا ـ وبين تلك التي تمثل الشروخ والتي ستصبح صدوعا"[6]. وواضح جدا أن هذه الرؤية ترفض النسبية الثقافية وما تحمله من تنوع الحضارات، وتسلب حق كل الشعوب في الصدور عن ثقافتها، والعيش في ظل قيمها. فليس مستنكرا أن تروج الولايات المتحدة الأمريكية لفكرها وثقافتها، فذلك من حقها ومن حق غيرها، لكن المستنكر والمستقبح الذي يعارضه منطق العلم وحقائق الحياة، أن تسعى الولايات المتحدة إلى سلب هذا الحق من شعوب العالم، وان تعمل على قتل جميع الثقافات وإعدامها، بل إن عمق النظر يفيد أن ذلك ليس من مصلحتها إطلاقا، بل إن هناك أصواتا غربية تعترف بوجود تمنع عند شعوب العالم في مواجهة ما يقدمه الغرب من الثقافة التي يعتبرها كونية ويعطيها صفة الحق المطلق. وقد كتب أحدهم ينتقد أطروحة نهاية التاريخ قائلا : "إن نظرية نهاية التاريخ تصطدم بهذه الحقيقة الدامغة، وهي أن عددا متزايدا من الشعوب والأمم والأفراد يشككون في تعريفنا للكوني، ويقترحون تعريفهم..."[7].

إن من أخطر المعضلات في "العولمة"، على هذا النحو الذي يقدمها به أصحابها، ومن خلال تعليقاتهم عليها، معضلة وصف الثقافة الغربية بالصواب المطلق وتجاهل جميع ثقافات الشعوب ومنها الشعوب المسلمة وإنكار الظن والنسبية في مجال الفكر والثقافة. وإن هذه المعضلة ـ إن لم يتم تصحيح الأمر وتداركه ـ ستكون لها آثار سيئة جدا على الأمن والسلم العالمي، بل إن آثاره قد ظهرت في جهات كثيرة، خاصة في علاقة الولايات المتحدة الأمريكية مع العالم الإسلامي.

---

(6) مدخل مؤتمر "الإسلام والعولمة"، ص ص. 13-14.

(7) "الإسلام والغرب في أطروحة صراع الحضارات: صورة قديمة في ثوب جديد" عبد الخالق الشدادي. مجلة المنعطف، العدد 20، ص. 59.

وممن تناول مسألة الخصوصيات الثقافية وطريقة التعايش بين الثقافات على اختلافها وتنوعها، سيرج لاتوش في كتابه "تغريب العالم" ؛ فذكر وجوها كثيرة وشهادات متنوعة في تعامل الغرب مع ثقافات شعوب العالم، وانتهى إلى ما انتهينا إليه من معضلة إنكار الخصوصيات الثقافية، وجعل التفكير ومنهج العيش والحياة نمطا واحدا وعلى صفة واحدة، تفرض على كل شعب من شعوب العالم أن يلتزم سلوكا قسرا رغم أنفه، ولو كان هذا السلوك معارضا لعقيدته وإيمانه ومنافيا لثقافته وفلسفته، ويخرق نظرته إلى الحياة والكون. ويختم سيرج لاتوش هذه المعضلة بقوله : "إن العالمية الحقيقية الوحيدة التي يمكن تصورها لا يمكنها أن تستند إلا إلى إجماع عالمي حقا، وهي تمر من خلال حوار أصيل بين الثقافات، ومثل هذا الحوار ممكن لأن إمكانية الحوار قائمة، وهو لا يمكنه أن ينجح إلا إذا كان كل طرف مستعدا لتقديم تنازلات. ونحن نشارك الاقتناع بأن كل ثقافة تملك الكثير الذي تعلمه للثقافات الأخرى، وبأن بوسعها أن تغتني بإسهامات عديدة. وليس من المؤكد رغم ذلك أن كل طرف يمكنه أن يلعب لعبة المعاملة بالمثل، أي بصورة ملموسة أن يجحد "بربريته" في سبيل حمل الآخر على أن يجحد بربريته هو من أجل السماح للاثنين بالاستمتاع بمقايضاتهما المتبادلة"(8). وكما يظهر من كلامه هذا، فإنه عبارة عن مشروع بديل عن مسألة نفي الخصوصيات الثقافية. وكلامه ـ على اختصاره ـ مهم جامع، فقد بدأ أولا ببيان العولمة الحقيقية من خلال الأساس الأول الذي يجب أن تقوم عليه وتنطلق منه وهو الإجماع العالمي، أي الانطلاق من القضايا المشتركة والأفكار المتفق عليها، ثم فتح باب الحوار وهو يتضمن الاعتراف المتبادل بين الثقافات. ثم ذكر منهجا للتعامل وهو ضرورة أن يقدم كل طرف تنازلات، وليس معنى ذلك أن يترك عقيدته أو يهجر ثقافته، وإنما هو التصرف على النحو الذي لا يستفز به من يخالفه في الفكر والثقافة. وقد فطن سرج لاتوش إلى أن هذا الهدف بعيد المنال بسبب عناد أصحاب العولمة، لكنه ليس هناك بد من العمل من أجل ذلك، وهذا ما عبر عنه بقوله في ختام هذه

---

(8) "تغريب العالم"، ص. 138.

المسألة : "وحيث إنه ليس هناك أي أمل في بناء أي شيء حي على الإطلاق على احتيال عالمية زائفة مفروضة بالعنف ومؤبدة بنفي الآخر، فإن الرهان على أن هناك مجالا مشتركا للتعايش الأخوي ينبغي اكتشافه وبناؤه، يستحق عناء الإقدام عليه"[9] أي كما قال الشاعر العربي :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها.

3. الاجتهاد في ظل العولمة : صفته ومآله

لقد ثبت من خلال ما تقدم أن العولمة تحصر الفكر والثقافة التي يجب أن يصدر عنها العالم كله في ثقافة الغرب وقيمه، وقد ضيق دعاة العولمة مجال التفكير والاجتهاد في ضوء الثقافات غير الثقافة الغربية، وربطوا الاعتداد بسائر الثقافات بالخطر على الأمن والسلم في العالم، ونفوا أن تتصف الثقافة الغربية بصفة النسبية، كما هو صريح في كلام دفيد روشكوبف لما اعتبر القول بنسبية الثقافة الأمريكية خطرا وخطئا، وإنما هو قناع يختفي خلفه من ليس له إمعان النظر. ومعنى هذا أن ثقافة العولمة التي تقدم لتكون عالمية وكونية، هي بمنزلة عقيدة ودين لا تتناوله المراجعة ولا يجوز مخالفته ولا الخروج عليه، لأنه حق وصواب ليس على جهة الظن، بل على جهة القطع ولا أثر فيه للنسبية، أو شيء ولو يسير من احتمال الخطأ. ومما يترتب على هذا أن باقي الثقافات المخالفة يجب تعديله ليكون على الصفة التي تحددها ثقافة العولمة. ولتعديل الثقافات يجب تعديل طرق التفكير ومناهج الدراسة والتعليم. ومعلوم أن الاجتهاد عند المسلمين هو طريق البحث والنظر الموصل إلى وضع التشريعات وأحكام التصرفات التي تجري في الحياة الخاصة والحياة العامة. وإن الاجتهاد له مسالك واضحة مبينة في كتب أصول الفقه عند علماء الإسلام. وبمقتضى ثقافة العولمة فإن الاجتهاد يجب أن يتحرك في الدائرة التي رسمتها ثقافة العولمة، فلا يجوز للمجتهد أن ينتهي إلى حكم يعارض ثقافة العولمة. وإذا اقتضى الأمر فيجب تعديل مفهوم

(9) نفسه.

الاجتهاد وتغيير معالمه وشروطه وطرقه. والمثال العملي الذي يمكن التمثيل به لهذا ما شهدته كثير من البلاد الإسلامية من ضغوط فكرية وسياسية من خلال المؤتمرات الدولية ـ التي هي المعبر عن ثقافة العولمة ـ من أجل تعديل الأحكام المتعلقة بالأسرة وتغيير أفكار الناس في البلاد الإسلامية في الموضوعات المتصلة بالمرأة وعلاقتها بالرجل. وإنما خصت الأسرة وأحكامها دون غيرها لأن القوانين المعمول بها في كثير من البلاد الإسلامية المتعلقة بالموضوعات الأخرى من الأحوال المدنية المختلفة، والجنايات والاقتصاد والمال والتجارة، ليس فيها شيء مما يخالف التوجه العام لثقافة العولمة، ولم يخرج عن ذلك إلا القوانين المنظمة لما يسمى بالأحوال الشخصية وهي أحكام الأسرة، من زواج وطلاق وميراث وحضانة وما يتعلق بها. فهذه القضايا بقي العمل فيها بأحكام الشريعة الإسلامية التي هي صلب ثقافة المسلمين وروحها. وإن كثيرا من هذه الأحكام يخالف في أصوله الفكرية وجزئياته العملية مقتضيات ثقافة العولمة في موضوع الأسرة والتي تم صياغتها في المؤتمرات حول المرأة وخاصة مؤتمر بكين. ومما يزيد في تأكيد هذا أن الضغوط انصرفت إلى نوع خاص من الأحكام التي تخالف ثقافة العولمة، فتم التأكيد خاصة على الولاية في الزواج، وتعدد الزوجات، وسن الزواج والطلاق. وكان التركيز في ذلك على وجوب ملائمة القوانين للمعاهدات الدولية.

ففي ظل هذا الوضع فإن الاجتهاد على النحو المعروف الذي هو بذل الوسع للوصول إلى الحكم الشرعي من خلال مصادر مخصوصة، لم يعد له مكان لأن العولمة قد انتهت من تقرير التوجه العام لحياة الناس وطرق عيشهم وتفكيرهم. فمقتضيات العولمة، إذن، لا تسمح بالاجتهاد المتحرر وإنما هو اجتهاد مقيد يتحرك في دائرة مخصوصة هي ثقافة العولمة التي هي ثقافة الغرب عموما، وما تم صياغته في المؤتمرات الدولية المتفرعة عن ذلك. فالآثار المرتقبة لتطبيق مقتضيات العولمة في شقها الثقافي آثار سيئة، لأنها في الحقيقة منع للاجتهاد أو على الأقل تغيير لمعالمه.

واستشراف الآثار السيئة للعولمة على الاجتهاد لا يعني أبدا التسليم بذلك والرضى به بدعوى أن العولمة قدرنا ليس لنا أن نتقدم عنه أو أن نتأخر، وإنما هذا أداء لأمانة العلم والفكر، الغرض منه تقديم تحليل منصف لعله يفيد في تجاوز الانحراف. فبيان هذه الآثار طريق إلى التصدي لانحرافات العولمة.

ويمكن ترتيب هذه الآثار على النحو الآتي :

1) تغيير معالم الاجتهاد وإطلاق ضوابطه وشروطه

إذا كان المطلوب ـ بمقتضى العولمة ـ من شعوب العالم الخضوع لثقافة واحدة والالتزام لفكر وحيد، وإجراء التشريعات والقوانين وفق ذلك، فإن الاجتهاد عند المسلمين يجب أن ينتهي إلى ما حددته العولمة، فيصبح الاجتهاد طريقا إلى بلوغ غاية مقررة وتأكيد حكم سابق، وليس إنشاء حكم جديد مستأنف. فالنتائج موضوعة سلفا، إنما يأتي الاجتهاد ليكسبها صفة المحلية والوطنية ويلبس ثقافة العولمة ثوبا إسلاميا. وأظهر مثال على ذلك ما حصل في مسألة أحكام الأسرة وقضايا المرأة والطفل، لما ظهرت كتابات كثيرة تقدم في صفة اجتهادات في الشريعة. وعند التدبر يظهر بوضوح أن هذه الاجتهادات لم تخرج أصلا فيما انتهت إليه عن مقررات وتوصيات المؤتمرات الدولية وخاصة مؤتمر بكين. فبعد أن صدرت التوصيات وتقررت النتائج جاء الاجتهاد ليكسبها صفة الشرعية. ومعنى هذا أن صورة الاجتهاد ومنهجه قد انقلب، فأصبح الاجتهاد يبدأ بعد وجود الحكم فيبذل "المجتهد" وسعه للتأصيل الشرعي لهذا الحكم، أما أن يستأنف حكما جديدا فهذا ليس اجتهادا. وعلى هذا فإن تعريف الاجتهاد لم يعد "بذل الوسع لبيان الحكم الشرعي" وإنما هو "البحث عن المستند الشرعي للأفكار الكونية والأحكام الأممية". ونمثل لذلك بمسألة "الصحة الإنجابية والتخطيط العائلي" فقد سبق أن نقلنا كلام صمويل هنتنكتن لما ذكر النمو السكاني في العالم الإسلامي وسماه "الديمغرافية الزاحفة للبلدان الإسلامية" ثم مضى يقول : "إن النمو السكاني عرف تصاعدا مثيرا في البلقان وأفريقيا الشمالية وآسيا الوسطى حيث

تجاوز (خصوصا في شمال أفريقيا) عشر مرات نسبة التزايد في أوربا الغربية ؛ فالمسلمون الذين كانوا يشكلون 18% من مجموع سكان العالم، سيصبحون حسب كل الاحتمالات 23% في عام 2000، و31% عام 2025... في السبعينات والثمانينات تجاوزت نسبة الشباب وبشكل كبير الحاجز المصيري (la barre fatidique) في الكثير من البلدان الإسلامية، أما الباقي منها فسيصل إلى هذا الحاجز عند بداية القرن 21 حيث سيشكل جيل أكثر تمدنا وتمدرسا، إننا نعلم اليوم أن هذا الجيل ما بين 15 و24 سنة هو بمثابة مزود للتنظيمات الإسلامية والحركات السياسية، وليس صدفة أن نسبة الشباب في إيران قد وصلت إلى 20% عند نهاية السبعينات، وأن الثورة الإيرانية اندلعت في 1979، وأيضا تم تجاوز الرقيم المصيري (20%) في الجزائر في بداية التسعينات أي حين كانت جبهة الإنقاذ في طريقها إلى اكتساب الشعبية والفوز بالانتخابات"[10]. وواضح أن هذا الكلام تنبيه وتحذير من تزايد السكان في العالم الإسلامي. وعلى هذه الصفة صدرت دراسات كثيرة وتقارير عديدة في مختلف البلاد الغربية وكلها تركز على علو معدل النمو السكاني في العالم الإسلامي مع استشراف ذلك في المستقبل القريب والبعيد، في سياق التحذير، لأن العنصر البشري عامل مهم جدا في ميزان الحضارات. ولهذا كانت مسألة نمو السكان حاضرة بقوة في المؤتمرات حول السكان، ومعلوم أن المقصود به الدول الإسلامية لأنها صاحبة أعلى المعدلات، وكان الهدف هو الحد من الزواج ومنع تعدد الزوجات، وتقنين الإجهاض، وتنظيم الصحة الإنجابية والثقافة الجنسية والتخطيط العائلي، وكلها ـ كما هو ظاهر ـ إنما هي في سياق الحد من النمو السكاني في العالم الإسلامي. فبعد هذا ـ ورغم وضوح الهدف والسياق الذي جاءت فيه هذه القرارت ـ انبرى كثير من الباحثين في العالم الإسلامي إلى بيان الوجه الشرعي والتماس الأصول الإسلامية لهذه القرارت، وقدمت على صفة أنها موافقة تمام الموافقة لضوابط الاجتهاد الشرعي. وفي هذا السياق يشير دليل أصدرته الأمم المتحدة عن السكان في

(10) **"استراتيجية الدفاع عن الأمن الإسلامي"**، ص ص. 15-16.

العالم إلى وجود برنامج يهدف إلى مراجعة المصادر والوثائق عن الإسلام المتعلقة بالتنظيم العائلي بغرض استعمال هذه المصادر من قبل أساتذة المدارس. وفي دليل آخر للأمم المتحدة هناك برنامج للتنقيب في النصوص والكتابات الإسلامية عن أي دليل إيجابي يمكن اعتماده لتشجيع الحد من النسل والتنظيم العائلي. ويذكر التقرير كيف يتم الاستعانة بالشخصيات الفقهية والمؤسسات العلمية. وأجرت دراسة في هذا السياق تحت عنوان "**الإسلام والتنظيم العائلي في الفقه المالكي**" انتهت إلى القول بأن تحديد النسل جائز في الإسلام بل مندوب، وهذا تحت إشراف مؤسسة علمية وبدعم الأمم المتحدة[11]. فهذا الاجتهاد ليس اجتهادا مستأنفا ولا نظرا مجردا ينطلق من البحث وعناصره ليصل إلى النتيجة، وإنما هو انطلاق من نتيجة موضوعة مقررة والتماس ما يؤيدها ويكسبها صفة القبول. وهذا كما سبق قلب بالمرة لمنهج الاجتهاد، وهو ما ينتج عنه أيضا التحلل من ضوابط الاجتهاد وطرقه ومسالكه، ليبقى عبارة عن انتخاب وانتقاء، فلا يهم ترتيب مصادر الاجتهاد حسب أهميتها، ولا استقصاء الأدلة وترتيبها حسب قوتها، ولا الترجيح، ولا مراعاة الأعراف وحال الزمان والمكان، ولا النظر في الحال ولا في المآل. ولهذا وجد من قال بأن جعل القرآن والسنة مصدرين للأحكام الشرعية أمر لا يخلو من السطحية والاختزال[12]. ومعنى هذا أن الاجتهاد مفتوح على جميع الاحتمالات وليس فيه منهج سالك يصدر عنه كل مجتهد، وإنما كل اجتهاد مستأنف في طرقه ومصادره، فمن الممكن مرة أن يجعل القرآن مصدرا، ويمكن تجاهله مرات أخرى حسب الحكم الذي هو منطلق الاجتهاد وأساسه.

2) جعل المواثيق الدولية والقرارات الأممية هي المصدر الأساس للاجتهاد

لقد سبق أن ثقافة "العولمة" يتم ترسيخها في شعوب العالم من خلال المواثيق الدولية، وأن ثقافة "العولمة" ليست نسبية وإنما هي كونية عالمية، ويجب على

---

(11) ينظر: "الاجتهاد في الخطاب النسوي: من شرعنة العلمنة إلى شرعنة العولمة" محمد أمزيان، **مجلة المنعطف**، العدد 15-16، ص ص. 159-160.

(12) ينظر : "تأويل النص في الخطاب النسوي المغربي" بدر المقري، **مجلة المنعطف**، العدد 15-16، ص. 151.

القوانين في جميع بلاد العالم أن تسير في ضوئها. وهذا يلزم منه أن يسير الاجتهاد في ضوء ثقافة العولمة. وإذا كان لا يجوز مخالفتها فمعنى ذلك بالضرورة أنها الأصل والأساس، وما عارضه وجب تركه أو تعديله ليتفق معه. ففي التعليلات المقدمة للتعديلات في مجال الأسرة والأحوال الشخصية في تقارير الأمم المتحدة، يتم التأكيد على إلغاء الخصوصيات التشريعية المناقضة للقرارات الأممية الصادرة في الموضوع. ولهذا التزمت الجهات المكلفة بالتنفيذ بذلك، فجعلت هذه القرارات أصلا، وإنما يأتي الاجتهاد ليعطيها صفة الشرعية، فكانت جميع القضايا التي طلب فيها التعديل ترجع إلى القرارات الأممية. بل تم التصريح بهذا المبدأ العام في بعض الوثائق المنجزة، وتم التنصيص على أن التعديلات في مجال أحكام الأسرة يجب أن "يراعى انسجامها مع الاتفاقيات الدولية الموقع عليها" ومعنى ذلك أنه لا يجوز معارضتها لأنها الأصل والأساس. وعلى هذا فإن وجد من مصادر الشريعة ما يفيد خلاف ما تنص عليه الاتفاقيات الدولية وجب التصرف في الاجتهاد وشروطه على النحو الذي ينتهي إلى إزالة التعارض. فمثلا بخصوص رفع سن الزواج يعلل بالخضوع للاتفاقيات الدولية المتعلقة بحقوق الطفل، وهو ما طالب به منهج العمل في بكين وطالب صراحة بتنفيذه. وبخصوص إلغاء الولاية في الزواج فهو استجابة للمادة 16 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ينص على أن "للرجل والمرأة متى أدركا سن البلوغ حق التزوج وتأسيس أسرة دون قيد بسبب العرق أو الجنسية أو الدين".

فمنطق العولمة يوجب أن تكون القرارات الأممية مصدرا أساسيا للقوانين، لأن الخصوصيات الثقافية والتشريعية لا اعتبار بها إلا بأن توافق ذلك.

3) إطلاق مصادر الاجتهاد

والمقصود به جعل مصادر الاجتهاد على صفة عامة ومطلقة غير منضبطة حتى يمكن التصرف بحرية كاملة في الاجتهاد. أما حصر المصادر وضبطها فهو "جمود وتقييد للاجتهاد". ولهذا نجد في الكتابات التي رامت أن تكون نموذجا

للاجتهاد في سياق العولمة، تذكر المصادر على صيغة كليات مغرقة في العموم والإطلاق، مثل : "العدل، والإنصاف، والمساواة، والحرية، والكرامة، والعقل".

4) انتقاء بعض مباحث الاجتهاد مع إطلاقها وتحليلها من ضوابطها

ولهذا يتم التركيز على "المصلحة، والمقاصد، وروح الشريعة، وماهية القرآن، والتأويل". ومن أمثلة ذلك قول القائل ب "فتح باب الاجتهاد واعتماد منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الاجتهاد الرائد المنتج الذي يقوم على فهم النصوص الشرعية في إطارها الصحيح من المقاصد الشرعية والمصالح الجماعية والتطورات الزمانية والمكانية"[13].

5) الدعوة إلى التحلل من ضوابط الإجماع والشهرة والشذوذ

وفي هذا المعنى يتم الدعوة إلى رفض عمل العلماء في تبني مذهب الجمهور دون الشاذ من الآراء، وإمكان العمل بالشاذ لأن "الفتوى الشاذة هي رمز على إمكانية العقل... وكتابة تاريخ الشاذ في الفقه بالذات بإمكانها أن تبرز إلى الوجود العقلانية المكبوتة"[14].

6) تحكيم نظرية نسبية الحقيقة ولا نهائية المعنى

وهذا هو الغاية المرجوة من كل ما سلف، فيكون الاجتهاد من حق كل أحد، وكل نظر كيف ما كان ومن أي كان معتدا به، و ـ في الوقت نفسه ـ كل اجتهاد أيضا غير معتد به. وهذا مثل ما حصل في مجال الآداب من خلال مذاهب التفكيك والبنيوية والدعوة إلى "موت المؤلف" و"تفجير النص" و"لا نهائية المعنى"، وإن كل تفسير هو نص جديد. فعلى هذا يكون الاجتهاد مفتوحا من غير ضبط ولا تحرير ولا منهج، فمثلا لو نظر في نص من القرآن مائة قارئ، فلا ضير

---

(13) "الاجتهاد في الخطاب النسوي: من شرعنة العلمنة إلى شرعنة العولمة" محمد أمزيان، مجلة المتعطف، العدد 15-16، ص. 167.

(14) نفسه، ص. 168.

أن يكون عندنا مائة معنى لأن المعنى ليس نهائيا، وكل قارئ يحق له أن يضع فهما خاصا به. وفي هذا المعنى يقول القائل : "لا يمكن الجزم بأن هناك دلالة نهائية لأي نص، ولا وجود لنص قطعي الدلالة، فملكات الفهم والإدراك لها دور أساسي في تحديد معاني النصوص الشرعية وفي تجديدها وتجاوزها إلى معان جديدة أخرى. فالمعنى ليس إنتاجا خالصا للنص، بقدر ما هو إسقاط خارجي للقارئ"[15]. وفي الوقت نفسه ـ الذي يوصف النظر في نصوص الشريعة بالنسبية ـ ينزع هذا الوصف عن ثقافة "العولمة" فتعتبر أحكامها مطلقة لا مجال لتعدد الفهم فيها ولا مكان لحرية الفكر والنظر خارج مقتضيات "العولمة". وحقيقة الأمر هنا أن النسبية وانفتاح النص ولا نهائية المعنى إنما تصح فقط عندما يكون مضمون النص معارضا "للعولمة" ومقتضياتها الفكرية، وفيما سوى ذلك لا مجال للتعدد والانفتاح، فكل ما اقتضته "العولمة" فهو صواب مطلق لا يوصف بالنسبية.

فهذه هي الآثار المرتقب أن تمتد إلى الاجتهاد بحسب مقتضيات "العولمة" وبحسب أقوال أصحابها. فإذا كانت الخصوصيات الثقافية غائبة، فلا يمكن لأصحاب "العولمة" أن يقبلوا باجتهاد منضبط كما وضعه علماء الإسلام وكما رسخ تلقائيا عبر الزمان والمكان، لأن هذا الاجتهاد من خصوصيات الثقافة الإسلامية والخصوصية مرفوضة. وقد ظهر هذا عمليا في ما سبق من الدراسات التي صاحبت تطبيق التوصيات الدولية في مجال المرأة والأسرة والطفل، وتبين كيف يتصور أصحاب "العولمة" مسألة الاجتهاد. وخلاصة ذلك أن الأصل هو تطبيق ثقافة "العولمة" ومن مقتضيات ذلك التصرف في عملية الاجتهاد بالتعديل والتقديم والتأخير حتى تكون على الصفة التي تقرر بها ثقافة "العولمة" وتشهد لها ولا تخرج عنها ولو يسيرا.

والذي يجب تأكيده وترسيخه ـ تعقيبا على ما سبق ـ أن تحكيم قواعد الاجتماع البشري وسنن العمران الإنساني، وحقائق النفس البشرية وقوانين الحياة والحضارة، يفيد أن أي محاولة لإلغاء الثقافات المتنوعة تؤول لا محالة إلى

(15) "تأويل النص في الخطاب النسوي المغربي" بدر المقري، مجلة المنعطف، العدد 15-16، ص ص. 151-152.

الفشل، مع احتمال حصول هزات عنيفة في الأمن والاستقرار. ثم إن ما يتصوره دعاة "العولمة" من أن التعديل في مناهج التعليم لتغيير الثقافات قد يؤول إلى توحيد الناس على قيم مشتركة، أمر بعيد المنال مخالف لقواعد الحياة البشرية، بل الأقرب أن يؤول ذلك إلى تقوية نوازع الغلو وغلبة ثقافة الرفض للآخر والدفع لكل مخالف. وفي مجال الاجتهاد فإن مثل هذا الوضع ستغيب فيه لا محالة ضوابط الإنصاف والتوازن والاعتدال، ليرتفع الغلو والإفراط والتفريط. وإن هناك الكثير من أهل الفكر والعلم في الغرب قد تنبهوا لهذا، فلابد من التعاون مع الجميع في هذه السبيل من أجل تقويم انحرافات "العولمة" واتقاء ما يمكن أن يترتب عن ذلك من آثار سيئة.

إن فرض نوع خاص من التفكير ونمط من القيم وطريقة العيش لا يمكن أن يكتسب صفة العالمية، ولا يمكن أن يسمى هذا "عولمة". فلابد من الانطلاق من قيم مشتركة مع مراعاة خصوصيات الثقافات والشعوب. لكن "العولمة" ـ كما تقدم ـ لا تراعي حتى القيم المشتركة. فمعلوم مثلا أن العدل ومنع الظلم قيمة عالمية وإنسانية، وهذا ما لم يتم التزامه أبدا. ف"العولمة" الحقيقية تفرض المساواة في الحقوق والسيادة، ولكن سيادة كثير من شعوب العالم منقوصة في ظل هذه "العولمة". إن "العولمة" المرجوة تنطلق من وجود حضارات متعددة وثقافات متنوعة، وإن هذه الحضارات بينها قدر مشترك من الأفكار العامة والقيم الكلية، وبينها قدر من التنوع بسبب خصوصيات كل ثقافة، فيجب أن توضع قواعد العمل وقوانين التواصل والتعامل على النحو الذي يحفظ القيم المشتركة ولا يقوض الخصوصيات الثقافية.

وإن الاجتهاد الإسلامي إنما ينمو ويرقى في اعتدال وتوازن في ظل "عولمة" ترسخ فيها القيم المشتركة وتحضر فيها الخصوصيات الثقافية، ويمكن لعلماء الإسلام أن يقدموا مصلحة للفكر الإنساني لأن مصادر الاجتهاد وضوابطه قامت على أساس وجود قدر مشترك من الأفكار وقدر من الخصوصيات، سواء داخل أمة المسلمين، وعلى صعيد العالم كله. ففي المجال الأول اشتهر منذ القديم أن

هناك قدرا من الأحكام والقوانين تتغير بتغير الزمان والمكان واختلاف الأعراف، وفي المجال الثاني هناك مراعاة لأحوال غير المسلمين واعتدادا بأفكارهم، في ظل كلمة سواء وعدل متبادل. وأصل هذا ودليله الواضح الصريح قول الله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ (سورة الحجرات : 12-13). فتم الانطلاق من أساس جامع مشترك وهو الخلق من ذكر وأنثى وهذا يفيد العدل والاشتراك في أصل الخلق والمساواة فيه. وبعد هذا القدر المشترك وقعت الإشارة - في سياق الامتنان وليس القدح والذم - إلى التنوع شعوبا وقبائل، وبيان مقصد ذلك وغايته هو التعارف وهو يفيد التواصل والتعاون على أساس العدل. ثم ختم ذلك بأصل عام يخضع له جميع البشر وهو أن التمييز والتفاضل أصله التزكية وعمل الخير وفعل الصالح. وفي التعليق على هذا الموضوع استخلص بعض الدارسين مبدأ من الآية سماه "قانون التعارف" وجعله أعمق وأقوى دلالة من قانون الاتصال الرائج في الكلام على "العولمة" لأنه لا يحصل الاتصال الحي إلا بكلام فيه معروف بين متكلمين يعترف بعضهم ببعض، فلابد إذن من "المعروف" و"الاعتراف" ليكون الاتصال سليما. فإن التعارف يوجب أن يكون الخبر المنقول معروفا أي فيه خير يوجب أن يجد فيه المتلقي نفعا، حتى يصير تناقل الأخبار والأفكار بين الملقي والمتلقي عبارة عن تناقل لخيرات وطيبات. وإذا كان خبر الملقي في خير وصلاح فإن المتلقي يعترف له بالفضل لا محالة إذ أحاطه بما لم يكن في علمه من الخير. "ومتى أقر المتلقي بفضل الملقي عليه من جهة تزويده بما لم يكن يعرفه، فإنه يكون قد اعترف في الوقت نفسه بأن هذا الملقي قد استقى خبره من مقام ليس كمقامه أو من سياق ليس كسياقه ولو أنهما قد يشتركان في أمور غير قليلة، بحيث تكون فائدة الخبر على قدر هذا الاختلاف في المقام والسياق. واعتراف المتلقي بهذا الاختلاف إنما هو إقرار بالخصوصية الثقافية للملقي، وعلى قدر هذه الخصوصية تكون حاجتهما إلى مزيد التعاون حتى يتعرف كل منهما على ما عند الآخر مما يتفرد به دونه[16]. ومن أصول ذلك قول

---

(16) ينظر : "الآفات الخلقية للعولمة" طه عبد الرحمن، مجلة المنعطف، العدد 20، ص ص. 44-45.

الله تعالى : ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ (سورة النساء : 123). وقد نزلت لما تحاجا المسلمون وأهل الكتاب، فادعى كل الفضل والسبق لملته، فأنزل الله قوله : ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به﴾ فالمقام ليس مقام تمايز وإظهار الفاضل من المفضول وإنما مقام تعاون وعمل صالح. وإعلان التفاضل هنا ليس له فائدة، وإنما له مفسدة هي خرق هذا المقصد الأصلي الذي هو التعارف والتعاون، لأن مجتمع المدينة في زمن النبوة كان يجمع أهل الإسلام وأهل الكتاب. وهذا لا ينقض أصل وجود التفضيل واعتقاد كل فريق الفضل لنفسه، فالمسلم يعتقد الفضل فيما عنده، فهذا أصل موجود غير منقوض، لكن هذا الأصل يتم إعماله وتصريفه على النحو الذي يحفظ الحق والعدل، خاصة في مقام مصلحة التعاون بسبب التعايش والاختلاط في مجتمع واحد. فاعتقاد كون المخالف على خطأ لا يجيز الإساءة إليه أو ظلمه أو منعه مما يعتقد صحته. وفي هذا المقام ورد نهي النبي محمد ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَال : اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُود، قَالَ الْمُسْلِم : وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ فَقَالَ الْيَهُودِي : وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِين، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِم، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم : "لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْش، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ"[17] وهذا لا ينفي الأفضلية وإنما إعلانها وتشهيرها في هذا المقام يؤول إلى إثارة الضغائن والاستفزاز، والمجتمع في حاجة إلى التعاون والأمن. فاليهود كانوا من مجتمع المدينة مع المسلمين، ففي مجال الخلاف في الدين والعقائد يراعى عدم الإثارة والاستفزاز.

(17) صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود.

ومن أصل ذلك أيضا ما هو مبثوث في القرآن الكريم من الآيات التي تذكر الجوامع المشتركة بين جميع البشر، وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى خاصة مثل قوله تعالى : ﴿إنا أنزلنا التوراة منها هدى ونور يحكم بها النبيئون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ (سورة المائدة : 44) وقوله تعالى : ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ (سورة المائدة : 46).

وأصله أيضا وثيقة المدينة التي نصت على طوائف مجتمع المدينة مع بيان الحقوق والواجبات.

ومن إعمال هذا الأصل عند الصحابة كلام جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ملك الحبشة وهو نصراني، فقد دخل المهاجرون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة تحت ملكه وأقاموا ببلده مع النصارى، وكانوا يراعون هذا الأصل حتى في كلامهم. ولهذا نجد أن جعفر بن أبي طالب لما تكلم باسمهم في مجلس النجاشي قرأ عليه من القرآن صدرا من سورة مريم وهي التي فيها قول الله تعالى : ﴿واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا، قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا، فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا، فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (سورة مريم : 16-26). وإنما قصد جعفر بن أبي طالب هذه الآيات خاصة لأن ما فيها مما يتفق عليه المسلمون والنصارى، مع أن في القرآن آيات كثيرة في محاجة النصارى ومناقشة عقائدهم،

وهذا مما يجب أن يعتقده المسلم لكن في مجال العمل والتصرف فإن مقام الاختلاط والتعايش يوجب التصرف على نحو خاص لا يحرك ضغائن ولا يثير فتنا[18].

فهذه كلها أصول شرعية وقواعد إسلامية في مراعاة الخصوصيات الثقافية، يمكن للاجتهاد الإسلامي من خلالها أن يقدم خدمة جليلة للحياة البشرية عامة، ويقوم سبيل "العولمة" ويرشد مسيرتها حتى تكون "عولمة" سليمة تنطلق من الأفكار المشتركة بين البشر وتراعي الخصوصيات الثقافية لجميع المجتمعات على ظهر الأرض.

(18) ينظر خبر جعفر بن أبي طالب مع النجاشي في "**سيرة ابن أسحاق**"، ص ص. 179-194. تحقيق وتعليق محمد حميد الله - 1396-1976.

الاجتهاد ومقاصد العولمة

الجيلالي لمريني

إن الباحث عن مفهوم العولمة يصعب عليه أن يجد مفهوماً محدداً جامعاً مانعاً على الرغم من كثرة ما قيل وكتب عنها سواء في الغرب أو الشرق، وشغلها لبال العلماء في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والثقافة، باعتبارها مؤثراً كبيراً في الحياة المعاصرة العالمية وبالخصوص العالم الإسلامي.

على أن عدم وجود تعريف جامع مانع للعولمة، لم يحل دون ظهور تعريفات تلونت وتنوعت بحسب التوجهات الفكرية للمعرفين.

من هذه التعاريف :

- يقول فهد العرابي الحراثي، عن العولمة : إنها أفكار القوة، وهي نماذجها الثقافية والحضارية وهي لسوء حظنا، وحظ أمثالنا تسير دائماً في اتجاه واحد. ولم نر مطلقاً أنها سارت في الاتجاهين : الذهاب والإياب، لذا فإن العولمة بتعبير بسيط آخر، هي أكذوبة القوي على الضعيف، وهي استدراج إلى ساحات معقدة من ساحات التعايش الممكن، في الوقت الذي يعلم فيه أنه لا يدرك من قوانين الساحات أي شيء[1].

ويعرف الاقتصاديون العولمة بأنها : (حركة تستهدف تحطيم الحدود الجغرافية والجمركية، وتسهيل نقل الرأسمالية عبر العالم كسوق كونية)[2] أما

(1) فهد العرابي الحارثي "موقعنا في الكونية الإعلامية الجديدة (العولمة... والفضائيات العربية) محاضرة ألقيت في مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض : 98/12/6.

(2) العولمة وحوار الحضارات، إبراهيم بن المبارك الجوير، أبريل 2002م.

السياسيون فيقولون عنها : (إنها التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والعلوم دون اعتداء يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو الانتماء إلى وطن محدد، أو دولة معينة، ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية)[3].

ومن تعاريف العولمة : (أنها النظام الدولي العلوي الذي تريده القوى العظمى لإعادة صياغة العالم واختزاله في دولة واحدة وعشرات المحافظين الذي ينحصر دورهم في ترويض الشعوب وصولاً إلى نموذج المواطن العالمي المستأنس).

ـ العولمة : حركة آحادية تريد فرض غطاء معين على شعوب العالم.. هي إعادة إنتاج نظام الهيمنة القديم وتقديمه في صورة جديدة... فالكلمة ليست كما هو معروف عربية الأصل، كما يقول الدكتور ذكاء الخالدي : وإنما هي تعريب لكلمة globalization فالبعض يسميها عولمة، والبعض الآخر عالمية وفصل ثالث يفضل كلمة كوكبة وهكذا.

نشأتها :

أول من أطلقها معرفيا هو عالم الاجتماع الكندي (مارشال ماك لوهان) عندما صاغ في نهاية عقد الستينات مفهوم القرية الكونية، ويميل بعضهم إلى رفض الجذور التاريخية للعولمة. ويعدونها ظاهرة معاصرة تبلورت عمليا مع نهايات القرن العشرين مثلما تبلورت القومية عملياً مع نهاية القرن التاسع عشر، ويرى بعضهم أن أولى موجات العولمة الجارية بدأت في منتصف الثمانينات وبدأت الثانية في أوائل التسعينات[4].

أجهزة، وتراكيب وتنظيمات تعمل بتقنيات محكمة دقيقة التعجيل لقولبة العالم ونمط موحد شمولي ـ أي كل ما يمس الإنسان في مجال حياته سياسية واقتصادية، ومجتمعاً ونمط سلوك، ومما يتصل بفكره إعلاماً وثقافة وعلماً.

---

(3) المرجع السابق، ص. 2.

(4) العولمة، عبد الله محمد أبكر، مقال غبار الإسلام، ص ص. 55-57، عدد 589.

العولمة من الناحية النظرية تعني التدفق الحر للبضائع والأفكار والأفراد ورؤوس الأموال، وكذلك المعلومات عبر بلاد العالم.

- حركة تستهدف تحطيم الحدود الجغرافية والجمركية وتسهيل نقل الرأسمالية عبر العالم كله كسوق كونية[5].

وعليه، فالمتأمل في هذه التعاريف يتضح له : أن كل تعريف ينطلق من خلفية قائلة العلمية والإيديولوجية. مما أدى إلى تعدد أوجه العولمة وتنوع مظاهرها وتجلياتها.

فهناك التجليات الاقتصادية.
وهناك التجليات السياسية.
وهناك التجليات الاجتماعية.
وهناك التجليات الثقافية.

يقول عبد الله عبد الخالق :

"فالاقتصادي يركز على الأبعاد الاقتصادية، مثل تحرك وانتقال السلع ورؤوس الأموال ووسائل الإنتاج وأدواته في حين يهتم السياسي بالبحث عن تأثيرات العولمة، ممثلة في تطور وسائلها العلمية والتكنولوجية على الدولة وسيادتها على أرضها، ودورها في اندماج العالم وانكماشه ؛ أما عالم الاجتماع فيرصد تأثير العولمة من خلال بروز الكثير من القضايا العالمية المعاصرة مثل الانفجار السكاني، والبيئة، والفقر، والمخدرات، والجريمة، والاكتظاظ في المدن، وحقوق الإنسان... ويهتم المتخصص في الشؤون الثقافية بأمور لعل من أهمها : انفتاح الثقافات، وهيمنة بعضها وخطر تهديد القيم والاعراف والتقاليد، والقناعات المحلية، أو ما يسميه البعض غزواً أو اختراقاً ثقافيا"[6] ؛ والحق أن

---

(5) العولمة : تعريفات ومفاهيم واتجاهات، عبد الله محمد ابكر، مقال غبار الإسلام، عدد 589، ص ص. 55 و56.

(6) العولمة : جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، عبد الله عبد الخالق، عالم الفكر، ص. 50.

العولمة تشمل كل هذه المجالات، فهي عولمة العالم دون مراعاة للخصوصيات والهويات والمميزات.

مقاصد العولمة

المقصد الثقافي : يقول المفكر مالك بن بني :

"فالفرد كما نعلم ينمي كيانه المادي في مجال حيوي «Biosphère» يمنحه منذ ميلاده العناصر الضرورية لنموه. فكأن هذه العناصر تذوب في بنية الفرد لتنميتها، وهو انحلال يحدث بواسطة عمليات الهضم والتمثيل ودوران الدم والتنفس، إلى غير ذلك مما تحدث علماء الحياة عن تفاصيله الكثيرة.

فلو جاز لنا، من الواجهة الحيوية، أن نفسِّر هذه العمليات على أنها تعبير عضوي عن الحياة، فإن هذه بدورها يمكن أن تفسَّر على أنها صلة بين الفرد وبين الوسط الذي ينمي فيه وجوده المادي، إذ أن هذه العمليات ليست في الواقع سوى أشكال متنوعة لعلاقته بالمجال الحيوي.

ولقد يقودنا هذا التصور إلى عالم آخر يستمد منه الفرد ما يلزمه من عناصر النمو لا لكيانه المادي، بل لكيانه النفسي.

والثقافة هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم، أي بالمجال الروحي الذي ينمي فيه وجوده النفسي، فهي نتيجة هذا الاتصال بذلك المناخ.

فالفرد إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتاً ثقافياً، فالثقافة إذن ـ إذا ما رَددْنا الأمور إلى مستوى اجتماعي ـ هي حياة المجتمع، التي بدونها يصبح مجتمعاً ميتاً"[7].

والعولمة تستهدف فيما تستهدف في الجانب الثقافي القضاء على عقائد المسلمين لأن تيار العولمة تيار لا ديني يقصد ثقافات الشعوب وعقائدها وعاداتها، وأسرها وأعرافها، وآمالها الاقتصادية، وبرامجها التربوية.

---

(7) ويلات العولمة، ص ص. 20-21.

وعليه : فمن مقاصد العولمة رد الدين الإسلامي.

1- العولمة ترى إبعاد الناس عن الدين. وذلك

أ ـ من خلال تشجيع القيم المادية، وفلسفة الاستهلاك التي تفتح الباب على مصراعيه للغرائز. كما أنها تنشر الرذائل والمفاسد والخلاعة[8].

ب ـ بالنسبة للإسلام، فهو العقبة الكأداء في وجه العولمة، لذا وجب محاربته بكل الوسائل، وصامويل هنتنغتون في كتابه **"صدام الحضارات"** لم يجد فرصة إلا عبر فيها عن عداء العولمة للإسلام حيث قال : "المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام"[9].

ج ـ عمليا : شكلت العولمة مواقع أنشأت فيها منظمات تدعو إلى العلمانية واللادينية، كأندية الروتاري والليونز. كما أوجدت الماسونية والبهائية. وغير ذلك من الدعوات.

د. تشويه صورة الإسلام : من خلال وسائل الإعلام المتفننة في محاربته ورد مبادئه، وتشويه أحكامه من خلال مواقف للمسلمين، والعمل على الخلط بين الإسلام والإرهاب. وذلك من خلال استخدام وسائل الإعلام المتطورة والتي هي خاضعة لأصحاب العولمة ـ تشويه حقائق الإسلام، من خلال التركيز على مواقف معينة، أو صور مفتعلة، أو أخطاء بعض المسلمين أو ما لا يعلم إلا الله لايقاف زحف الإسلام. وإبعاده عن الساحة الدولية، والعربية والإسلامية حتى لا يشع نوره فلقد أعلنت الولايات المتحدة "قانون التحرر من الإضطهاد الديني"[10] في مطلع العام 1998م، وفي هذا القانون مع سائر الإجراءات الأمريكية، يتم التركيز على موضوع الأقليات، ويزعم الأمريكي أن يتدخل لتحرير الأقليات من الاضطهاد

---

(8) **نفس المرجع**، ص. 66.

(9) **ويلات العولمة**، ص ص. 67-68.

(10) **ويلات العولمة**، ص. 69.

الديني وأبرز ساحة تدخلوا ولا يزالون فيها هي الساحة المصرية في محاولة لإثارة الفتنة بين المسلمين والاقباط[11].

ويتجلى محاربة العولمة للدين :

1 - محاربة التضامن الإسلامي، لكي تبقى البلدان الإسلامية كيانات صغيرة ضعيفة الأثر في مسيرة عالم الكيانات الكبرى التي بدأت تتكون من حوله في الوقت الحاضر. الاتحاد الأروبي نموذجاً.

وذلك عن طريق بث النعرات القومية والعرقية والقبلية بين المسلمين بذراً للشقاق بينهم وتفريقا لشملهم ودفعهم لأن يكون بأسهم بينهم شديد، وصولا لمنعهم من التوحيد تحت راية الإسلام واستهلاكاً لطاقاتهم.

2 - بذل محاولات لعزل الإسلام عن شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعاملات والأخلاق، وحصره في العبادات فقط.

3 - اتهام الإسلام بالعجز عن استيعاب التطورات الحديثة، وان نجاحه في تكوين مجتمع صالح في الماضي قد اعتمد على ظروف ملائمة لطبيعته آنذاك. أما اليوم، بعد أن تبدلت طبيعة المجتمعات واختلفت أنماط الحياة فيها، يعجز الإسلام عن مواجهة المتغيرات الجديدة، ويدللون على هذه المقولة الزائفة بتخلف المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

4 - تشجيع الفرق المنحرفة عن الإسلام الصحيح، توسيعاً لهذه الشقاق بين المسلمين، ووصولا إلى فرقتهم وتناحرهم، واستعداء كل من السنة والشيعة على بعضهم بعضاً.

5- التشكيك في الحكام وتحقير علماء الدين وإيجاد فجوة بينهم وبين الشباب تمزيقاً لأواصر الأمة.

---

(11) **ويلات العولمة**، ص. 66.

6 ـ صرف الجميع عن العبادات وصولا إلى إضعاف هويتهم الإسلامية.

7 ـ تشجيع الإرهاب ووهم الإسلام به، وصولاً إلى تشويه صورة الإسلام عند أبنائه وعند الآخرين.

8 ـ إنشاء المزيد من محاضر التنصير في بلاد المسلمين للعمل على استقطاب الأطفال والشباب بعيداً عن الإسلام[12].

2 ـ من مقاصد العولمة : قتل النفوس مادياً ومعنوياً

أ ـ إن في رد الدين الإسلامي ومحاربته قتل للنفوس البشرية بطريقة أو أخرى. فحياة بلا دين موت، قال تعالى : ﴿أو من كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾[13].

قال ابن عباس : أو من كان كافراً فهديناه، نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل، وقال زيد بن أسلم والسدي، فأحييناه "عمر" رضي الله عنه[14].

والنور عبارة عن الهدى والإيمان، وقال الحسن : القرآن، وقيل : هو النور المذكور في قوله تعالى : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ وقوله : ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾[15].

ب ـ ومن مقاصد العولمة إشاعة الأباحية والجنس والحرية غير المضبوطة لنشر الفساد والسيدا والزهري، والأمراض المتنقلة عبر الجنس، وإباحة المخدرات القاتلة بالبطء. وكل هذه الأمور تعمل على تدمير النفوس بالبطء أو بالمباشر.

---

(12) العولمة : تعريفات ومفاهيم واتجاهات، مقال بالمجلة المنهل : ذ. عبد الله محمد ابكر، ص. 64.

(13) الأنعام، ص. 122.

(14) الجامع الأحكام للقرطبي، 78/7.

(15) نفس المصدر، 78/7.

ج ـ إن العولمة الاقتصادية لا تنظر إلى الفقراء سواء كانوا أفراداً أو دولاً بل هدفها الربح والاستغلال ولو على حساب الدول الفقيرة.

ففي العولمة الاقتصادية يزداد الغني غنى، والفقير فقراً، حتى ولو وصل بهم الحال إلى الموت أو المجاعة، وسوء التغذية.

وهذا ما يعمل على الإخلال بحفظ النفوس من جهة العدم. فإباحة الإجهاض على الإطلاق، وقضايا الاستنساخ إلى غير ذلك خير منال.

3 ـ من مقاصد العولمة : الإخلال بالعقول

"لان انتشار واسع لثقافة المخدرات التي تهيمن على الأحياء العنصرية الفقيرة باعتبارها نمطاً لهروب نفسي، أو أسلوب بديل للثراء بسرعة، حيث قدرت مكاسب المخدرات بأكثر من 100 مليار دولار أمريكي سنوياً، وهي منتشرة أيضاً خارج الأحياء، خاصة في المراكز الريفية الكبيرة"[16].

وهناك التخدير المعنوي الذي تمارسه العولمة بوسائلها الحديثة المتطورة والمتقدمة ليعيش الإنسان في العالم نمطاً واحداً من التفكير، والموازين، والمواقف بدون بحث ونقد وتعقيب وتعليق، وفي هذا تغييب للعقل، والحد من قدراته أو استغلاله لصالحه.

يقول د. اسعد السحمراني : (إنَّ أمريكا تسعى لتطويق النخب والأطر العليا في الدول الأخرى ـ خاصة في الدول النامية ـ وذلك إما بجذبها كي تدرس في جامعاتها ومعاهدها، أو بمد صلة معها ملوِّحة بورقة المصالح التي قد تغري بعض ضعاف النفوس، وهذا يفرض أمركة الثقافة عند هؤلاء كي يكونوا أبواقا للعولمة وما تدعو له، رغم تعارضه مع القيم الدينية الناظمة لمسيرة الشعوب وللحراك الاجتماعي، حيث تشكل هذه القيم الضوابط التي تحصِّن المجتمع من المفاسد وأبرزها مفاسد تدعو لها العولمة، وتغري بها)[17].

---

(16) **ويلات العولمة : على الدين واللغة والثقافة**، د. أسعد السحمراني، ص. 64.

(17) **ويلات العولمة : على الدين واللغة والثقافة**، د. اسعد السحمراني، ص. 67.

إن العولمة تسعى إلى إعداد عقول مشوهة تعتقد ما تقول لها، وتصدق ما تخبره بها، وتتمثل معاني العولمة ومنهجها وخطتها وتصورها للكون للحياة، حتى تقف بجانبها، وتؤكد خطتها.

4 - من مقاصد العولمة : الإخلال بالنسل

فالعولمة تسعى سعياً حثيثاً لإباحة الجنسية بكثرة، وهي التي تهدد، إذا ما غدت أسلوب حياة مهيمن، مركزية العائلة من خلال استفحال، ما يدعى بعائلة الأب الواحد، وهو الأمر الذي يساهم بحجم كبير في إضعاف شديد لروابط اللحمة الاجتماعية الأولوية، ناهيك عن الإيدز الذي هو أثر جانبي مأسوي.

كما أن العولمة بثوبها الليبرالي الأمريكي العلماني، تتحدى القيم الدينية في الشؤون كافة، وتركز على العائلة، وتجعلها من أول مقاصدها، ويتضح ذلك من خلال الممارسة حيث توافقت فكرة العولمة عند الأمريكي مع دعوات الاللاباحية، وتجاوز قداسة الرابطة الزوجية والأسرية، وكان ذلك عند انعقاد مؤتمر السكان في القاهرة صيف عام 1994م، ومؤتمر المرأة في بكين في العام 1995م ؛ وفي كلا المؤتمرين كانت الدعوات للإباحية والإجهاض والسماح بالشذوذ والمثلية في العلاقات الجنسية، وما إلى ذلك من أنواع المفاسد[18].

إن لعولمة المرأة أثراً كبيرا على حفظ النسل، واستقراره وتنشئته تنشئة غير سوية مما يؤثر على هويته ووطنيته ودينه وانتمائه[19].

- من مقاصد العولمة : الهيمنة على العالم اقتصادياً

إن المقصد الأصلي من مقاصد العولمة هو المقصد الاقتصادي لأن العولمة في الأصل اقتصادية، وإن أبعادها وتجلياتها الأخرى الثقافية والاجتماعية... جاءت تابعة. فالعولمة لا تعرف الدين، وإنما تعرف الدنيا، ولا تمت إلى الأخلاق والرحمة بشيء، بل تهدف إلى المادة ولو كانت على حساب الفقراء.

---

(18) **ويلات العولمة** : د. اسعد السحمراني، ص. 64.

(19) انظر **ويلات العولمة**، د. اسعد السحمراني، ص. 45 و46.

إن عولمة الاقتصاد تفي الهيمنة الاقتصادية على العالم بطرق لا تعرف الحلال ولا تترك مجالاً للدول النامية أو المتخلفة. إنها تيار جارف يضرب الدين والدنيا. فما الحل من الناحية الشرعية ؟

إن الاجتهاد بصفة عامة والاجتهاد والمقاصد بصفة خاصة يرى هذه العولمة ومما تتوخاه في العالم.

- من الناحية الدينية : فالاجتهاد الفقهي يرد ما تطمح إليه العولمة وهي تعقد سلسلة من المؤتمرات الدولية التي لا تراعي في كثير من موادها تعاليم الدين الإسلامي، بهدف إخراج مواثيق دولية تلتزم بها الدول والهيئات والمنظمات المشاركة في المؤتمر. وقد تجلى ذلك في مؤتمر السكان الذي عقد بالقاهرة في صيف العام 1994م، والذي أريد منه :

- إباحة الإجهاض بإطلاق.

- وتجيز الأسرة الوحيدة الجنس (الزواج المثلي أي زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء).

- إطلاق العنان للأولاد في السلوك الجنسي.

- والاعتراف بالانجاب خارج إطار الزواج الشرعي.

إلى غير ذلك من الأمور التي تخالف الدين الإسلامي.

وعموما فالعولمة ترفض الدين بل تحاربه، مع أن الدين هو الضروري الأول، وهو الأصل لما سواه من الضروريات.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : (تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام : أحدها : أن تكون ضرورية، والثاني : أن تكون حاجية، والثالث : أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية : فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت، لم تجر مصالح الدين على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين)[20].

ومجموع الضروريات خمسة : وهي : حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. وحفظ الدين هو الأصل لباقي الضروريات.

فعلى العلماء ورثة الأنبياء، والمجامع الفقهية في الدول الإسلامية وعلى رابطة علماء الإسلام، الاهتمام بمقاصد العولمة ووسائلها، والإحاطة بظروفها وملابساتها، لمعرفة حكم الله فيها، والخروج باجتهاد مقاصدي وشرعي، يوجه الأمة، ويرسم الدليل، وينير السبيل، ويحقق المصالح الشرعية، ويدرأ المفاسد الواقعة أو المتوقعة من العولمة، ولاسيما إذا علمنا أن الاجتهاد فريضة شرعية، وضرورة واقعية وإلا أصبحت الأمة مستغربة، تعيش بفكر الآخر، وثقافة الآخر، وهذا هو الخطير على الأمة الإسلامية، أن تعيش بدون دين وبلغة غير لغتها، وهوية غير هويتها، وهذا لن يتم إلا بدعم المؤسسات الإسلامية القائمة.

الحفاظ على النفوس : إن من الضروريات الخمس حفظ النفس والذي يحفظ النفوس حفظاً حقيقياً، هو الدين الإسلامي، فالحفاظ على الدين يفضي إلى الحفاظ على النفوس، وما يؤكد هذا ويشهد له هو : الحروب الاستعمارية ـ الهيمنة الاقتصادية ـ العولمة بكل أهدافها ـ الاستغلال ـ الإرهاب الدولي.

وهذا ما يستوجب التعاون الديني والاقتصادي والعسكري، والبشري للتصدي لكل ما من شأنه أن يهدر النفوس، خصوصاً دماء المسلمين التي أصبحت رخيصة.

ولن يتحقق هذا وغيره إلا بروح الأخوة الإسلامية : مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. لأن الإسلام يرفض الأنانية، لأنه لا مجال في الإسلام للنزعة الفردية وعبادة الذات ومصالحها. ولا سيما إذا علمنا أن فريضة الأخوة الإسلامية هي الفريضة الغائبة.

---

(20) الموافقات 8/2.

ـ من حيث حفظ العقل :

لابد من استخدام إعلامي إسلامي مواكب لحياة الأمة الإسلامية في كل مستجداتها، ووفق أصولها، ليعطي الصورة الصحيحة للإسلام، ولتفنيذ الافتراءات عليه، ولتكون مركزا للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

كما يطلع بمهمة بناء الإنسان المسلم بناء قوياً، متعلماً في دينه ودنياه. يعلم ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ويأخذ بالأسباب العلمية في كل مناحي الحياة ليكون مؤثراً بالروح والمادة، يعبد ربه، ولا ينسى دنياه، ولا يتعدى على الآخرين.

ـ من حيث حفظ النسل :

إن الزواج في الإسلام ميثاق غليظ، وسبب لبناء الرجال والعلماء والأمناء والأقوياء، لا عبدة اللذة، فاستقرار الأسرة، وبناؤها وفق شرع الله، هو الكفيل بالحفاظ على النسل والأنساب.

ـ من حيث حفظ المال

لابد لمواجهة العولمة من تكوين المؤسسات الاقتصادية الكبرى عبر العالم الإسلامي، وإيجاد سوق إسلامية مشتركة.

وأختم هذا العرض : بقولي :

إن الإسلام بكلياته وجزئياته كفيل بحمايتنا من مخاطر العولمة العقدية والنفسية والبشرية والأسرية والعقلية والمالية والمفروض أن يكون الإسلام هو العالمي، لأنه لا يمس الشعوب والأمم وكرامتها إلا بما هو خير لها في الدنيا والآخرة.

العولمة ومناهج التعليم

محمد عوام

لئن كانت العولمة ـ كما يرى معظم الباحثين ـ تركز على الجانب الاقتصادي، فإن تأمين هذا الجانب، لابد له من منحى فكري، وثقافي، وتعليمي وتربوي، يكون خادما للجانب الاقتصادي والاجتماعي وغيرهما، ولا يحصل ذلك حسب خبراء أو دهاقنة العولمة إلا بمطالبة تغيير المناهج التعليمية والتربوية، التي على إثرها تتشكل عقول الأجيال، ويقع تغيير المجتمعات. إذ التعليم هو الأساس الذي يعول عليه، وهو الأصل الذي ينبني عليه غيره.

وحديثنا عن العولمة والمناهج التعليمية والتربوية، لا يعني عدم الاستفادة مما هو عند الأمم والشعوب، كما قد يظهر في باديء الرأي، وإنما نعني الاستفادة من التقنيات والوسائل مع المحافظة على الخصوصية العقدية والفكرية، والهوية الحضارية للمجتمعات، خاصة المجتمعات الإسلامية.

والذي أريد تأكيده بخصوص هذه المسألة، أنه لا يوجد في الدين ما يمنع من هذه الاستفادة، أو يردها، وإنما نجد ما يعضدها ويقويها. من ذلك قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1] (الحجرات 13).

(1) يقول جاره الله الزمخشري في (الكشاف) : "والشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي : الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل..." 569/3، وانظر التحرير والتنوير لابن عاشور 259/26.

فالشأن في التعارف يقتضي التعاون والتآزر والتناصر، من أجل إقامة المصالح، والوفاء بجميع الحاجات، والنهوض بالقضايا المشتركة التي تجمع بين بني آدم شعوبا وقبائل، قارات ودولا، وتبادل الخبرات الإنسانية الهادية والحكيمة، والتجارب البشرية الهادفة والرشيدة.

وقد وقع التنبيه على هذا المعنى العظيم الذي نصت عليه الآية الكريمة، على جهة الإيماء، في الحديث النبوي الشريف، عند قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : "كنت لك كأبي زرع لأم زرع"[2].

حكى القاضي عياض (544هـ) رحمه الله عن المهلب بن أبي صفرة الفقيه (433هـ)[3] في شرحه لحديث أم زرع أنه قال : "فيه (يعني الحديث) من الفقه جواز التأسي بأهل الإحسان من كل أمة". فصححه القاضي عياض، واشترط عدم مصادمته للشريعة[4].

من هنا أقول إن أي إصلاح أو تقدم حضاري له صلة وثيقة بالمناهج المعرفية والتعليمية والتربوية التي انبثق منها. فمن ثمة كانت هذه المناهج نفسها، تعرب عن مقومات أمة مّا الحضارية، وتستمد من خصائصها الوجودية، أعني أن المناهج التعليمية مشدودة إلى الرؤية المعرفية حول الكون والإنسان والحياة. ولا أحسب هذا إلا من المسلمات التي لا ينازع فيها أحد، ولا يختلف حولها أولو

---

(2) رواه البخاري في (باب حسن المعاشرة مع الأهل)، وهو حديث طويل، عرف عند المحدثين بحديث أم زرع. فائدته على ما نبه عليه ابن المنير الإحسان في معاشرة الأهل، مبينا بذلك ما أفادته ترجمة البخاري له، وليس ذلك حصرا له في هذه الفائدة، بل ذكروا له فوائد أخرى نبه عليها القاضي عياض رحمه الله في كتابه النفيس (**بغية الرائد في ما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد**) وقد خص به هذا الحديث، وكذلك العلامة ابن حجر في **فتح الباري** 317/9.

(3) هو أبو القاسم المهلب بن أحمد بن أسيد بن أبي صفرة التميمي، من أهل الأندلس، كان راسخا في الفقه والحديث والعبادة والنظر، شرح صحيح البخاري واختصره في كتاب سماه (**النصيح في اختصار الصحيح**) توفي سنة 433هـ. وهو غير المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة. انظر **الديباج المذهب** 427، **وشجرة النور الزكية** 114/1.

(4) **بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد** 171.

الألباب. إذ نستطيع أن نجزم أنه لا يوجد منهج تعليمي، قد جرد من مقولاته ونماذجه التي تشكل ضمنها، واصطبغ بصبغتها[5].

من هنا كان التعويل على المناهج التعليمية في بناء الحضارة، والعلم والمعرفة، والرقي والتقدم، أمرا من الأهمية بمكان، إذ تعبر عن الرؤية التصورية والكلية التي تؤطر الأمة.

فعلى هذا الأساس ندرك الحكمة من نزول أول لفظ من القرآن الكريم وهو الأمر (بالقراءة) في قوله عز وجل : ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (سورة العلق 1-5).

ففي هذه الآيات الكريمات من سورة العلق من الدلالات والإيحاءات ما يلي :

1 ـ أن القراءة هي باب العلم وإحدى وسائله ومفاتيحه، فهي بذلك تكون من الوسائل.

2 ـ أنها قراءة عامة سواء في كتاب الله المسطور، أو كتابه المنظور، وهو الكون المشهود. فالقراءة الأولى تتعلق بمقاصد الدين، والثانية من باب الوسائل والأمور المهمة التي تحقق معنى الاستخلاف واستعمار الأرض بمعناه القرآني.

ومع الأسف فإن الأزمة الفكرية التي حلت ـ واستفحلت ـ بالمسلمين، جعلتهم يصدفون ويتنكبون عن هذه العلوم الوسيلية. فلما استنكفوا عنها أردتهم صرعى.

وها هو ذا الإمام أبو حامد الغزالي (505هـ) يحذر من هذا الخلل الذي عمت به البلوى، فقال رحمه الله : "ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الردء[6]، ومنهم الذي يسقيهم

---

(5) انظر **الإسلام في معركة الحضارة**، ص. 159. وانظر **إسلامية المعرفة** 147 عدد 29، السنة 8، 1423هـ ـ 2002م.

(6) الردء : المعين والعون والناصر. قال تعالى على لسان موسى حين طلب جعل أخيه هارون لفصاحته معينا ومصدقا له وناصرا لدعوته : ﴿قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا، فأرسله معي ردءا يصدقني﴾ (القصص 33-34) "وفي وصية عمر رضي الله عنه عند موته : وأوصيه بأهل الأمصار خيرا، فإنهم ردء الإسلام وجباة المال". انظر **لسان العرب** 85/1، و**مفردات الراغب الأصفهاني** 350.

الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم، ولا ينفك أحد منهم عن أجر، إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم، فكذلك العلماء. قال الله تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾... ومن قصد الله تعالى بالعلم، أي علم كان، نفعه ورفعه لا محالة"[7].

3 - أنها قراءة مرتبطة بعقيدة الأمة، ومستمدة من دينها وتصورها وأسسها الحضارية والفكرية، حول الكون، والحياة، والإنسان، ولم تكن مجرد قراءة تجريدية، أو سيالة رجراجة لاتخضع لشيء، ولا تنضبط بشيء، وإنما هي قراءة ترتبط بعقيدة الأمة.

وهنا نجد الارتباط الوطيد الذي لا تنفصم عراه بين المناهج التعليمية، والمنطلق العقدي. وهذا ما جنح إلى ترسيخه والذود عنه النظام العولمي، وإن اقتضى الأمر التدخل العسكري، كما هو ملاحظ الآن.

الخلفية العقدية لعولمة المناهج التعليمية

فلا جرم أنه ينبني على هذه المقدمة، أن نكشف عن الخلفية العقدية، والمضمون الفكري الذي يؤطر النظام العولمي في مطالبته بتغيير المناهج الدراسية والتعليمية، خاصة في العالم الإسلامي.

لا يخفى أن مواجهة العالم الإسلامي، منذ أمد بعيد، أخذت مظاهر شتى، وألوانا من الحرب سواء المعلنة أو الخفية. وعلى رأس القضايا الكبرى التي كانت نصب أعين الاستعمار والاستكبار العالمي بقيادة أمريكا وأروبا المتهودتين[8]، المطالبة بتغيير مناهج التعليم في البلدان الإسلامية، وفقا لما تمليه سياستهم في عولمة مناهج التعليم، يعني أن يتمركز التعليم حول قطب عالمي واحد وموحد،

(7) الإحياء 1/66-67.

(8) أصبح معروفا ارتباط الحكومة الأمريكية بالكنيسة المتطرفة الموالية لليهود، إضافة إلى الدعم الأوروبي لليهود. فهم جميعا ساهموا في زرع وقيام دولة إسرئيل. وبالرغم من أن أمريكا تطالب بتغيير المناهج والبرامج التربوية، فإنها لا تقبل لنفسها بذلك، ولا ترضاه، وهي القائلة قبل عشرين عاما : "لو قامت قوة بفرض نظام تعليمي علينا لكان ذلك مدعاة لإعلان حرب".

حيث يصطبغ بصبغته ومقولاته ومناهجه، النابعة من عقيدة الغرب ومنظومته الحضارية التي ترتكز أساسا على العقيدة التوراتية النصرانية، والتلمودية اليهودية، حيث ظلت من خلالهما تنظر شزرا بروح صليبية حاقدة إلى المجتمعات الإنسانية، خاصة الذين يحسبونهم الخصم اللذود، والعدو العنيد، وهم المسلمون، مع نفي كل الخصوصيات الثقافية والفكرية والمجتمعية، ودحض التعددية والتنوعية في جميع الحقول المعرفية.

ولقد كان الدكتور المهدي المنجرة محقا حين أرجع مفهوم العولمة، بعد تحليل خلفياتها وأبعادها، إلى "اللاتنظيم" و"نزع ملكية الشعوب" فقال : "إن العولمة تعني مركزة السلط، كل أشكال السلط، وليس فقط السلطة السياسية... ف"العولمة" ترجع في التحليل الأخير إلى "اللاتنظيم"، إنها تعني منذ الآن، العملية التي يتم بواسطتها ـ بمساعدة صندوق النقد الدولي والبنك العالمي في الغالب ـ "تنظيم" نزع ملكية الشعوب بمباركة الزعامة المحلية التي لا يفوتها الاغتناء بالمناسبة"[9].

هذا المنحى العقدي الذي يعتبر اللبنة الأساس للحضارة الغربية، هو الذي يعترف به صراحة دون تلكأ الخبير في الشؤون الخارجية الأمريكية، صمويل هنتنجتون (SAMUEL HUNTINGTON) في دراسة تحت عنوان **(الغرب : متفرد وليس عالميا)** إذ يقول في هذا الصدد : "إن شعوب العالم غير الغربية لا يمكن لها أن تدخل في النسيج الحضاري للغرب، حتى وإن استهلكت البضائع الغربية، وشاهدت الأفلام الأمريكية، واستمعت إلى الموسيقى الغربية. فروح أي حضارة هي اللغة والدين والقيم والعادات والتقاليد. وحضارة الغرب تتميز بكونها وريثة الحضارات اليونانية والرومانية والمسيحية الغربية، والأصول اللاتينية للغات شعوبها، والفصل بين الدين والدولة، وسيادة القانون، والتعددية في ظل المجتمع المدني، والهياكل النيابية، والحرية الفردية"[10].

---

(9) عولمة العولمة 13 منشورات الزمن، شتنبر، 2000.

(10) مجلة شؤون خارجية عدد شهري نوفمبر وديسمبر 1996.

تظهر هذه الروح العقدية لعولمة المناهج التعليمية في المطالبة بتنحية كل ما له صلة بدين الأمة، ومن صميم عقيدتها. فطالبوا بتخلية البرامج التعليمية من ذكر الجهاد، لأنه ـ حسب زعمهم ـ إرهابا وعنفا دمويا، يقول أحدهم ممن يحسبون على المسلمين : "فقه الموت هو الذي ما زال يدرسه أبناؤنا في مدارس العالم الإسلامي وجامعاته باستثناء تركيا وتونس" "لأن برامج التعليم العتيق غسلت أدمغتهم ولقنتهم منذ نعومة أظفارهم فقه الحروب الصليبية القائل : الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة إذا غزت الحرب دار الإسلام سواء كانت ظالمة أو مظلومة"[11]، والولاء والبراء، وتكفير غير المسلم، والحجاب. بل الأدهى والأمر إزالة بعض الصور المعبرة عن الصلاة والوضوء من مقررات التربية الإسلامية.

فقد أصدر وزير التربية الجزائري "قرارا بحذف التعاليم والأذكار التي تلازم عملية غسل الميت، وآيات وأحاديث الترهيب بعذاب القبر وفقه الجهاد. كما استبدلت الرسومات والصور التي كانت تظهر الطفل الذي يتوضأ أو يؤدي الصلاة مرتديا العباءة أو القميص الإسلامي بصورة أخرى تظهره بسروال جينز[12].

من هنا ينبغي أن نفهم جيدا الدعم الأمريكي لباكستان الذي كان مقداره 100 مليون دولار، لإقامة بنك معلومات عن المدارس القرآنية، قصد جمع معلومات عن كل طالب ومدرس، وكل ما ينشر.

ومن هنا نفهم ـ أيضا ـ مطالبة إسرائيل بتغيير مناهج التربية في مصر، وإزالة كل ما يؤدي إلى كراهية هذا العنصر الإسرائيلي الدخيل على الأمة. وكل ما من شأنه أن يشوش على ما يسمونه بزعمهم السلام والمصالحة. فحصل أن تغيرت مواد التاريخ والقراءة، وأزيلت وحذفت كل النصوص المتعلقة بالحرب بيننا وبين اليهود[13].

---

(11) انظر مجلة البيان اللندنية 31، السنة 17 ، العدد 173، 1323هـ ـ 2002م.

(12) نفسه.

(13) انظر مجلة البيان 42، ثم تلى ذلك سعي حثيث ومحاولات جادة في تغيير البرامج التعليمية والتربوية، حتى بلغ الأمر بهم إلى استبدال مادة الأخلاق بمادة التربية الإسلامية، حيث تدرس مادة الأخلاق بخليط (كوكتل) من نصوص الكتاب والسنة، وأقاويل التوراة والإنجيل، وتعابير الفلاسفة. من ثمة أصبح التعليم في مصر لا لون له ولا دين له.

على أنه قد "عقدت ندوة في جامعة تل أبيب عنوانها : (دراسة تأثير القرآن (الكريم) في عرقلة التطبيع مع إسرائيل) وشارك فيها مصطفى خليل رئيس وزراء السادات السابق، وبطرس غالي. ثم طالب بيجن بإغلاق دور القرآن الكريم في مصر وتأميم المساجد.

وقد تم من ذلك الكثير على المستوى العملي ؛ فجرى حذف بعض آيات القرآن الكريم من المناهج التي يدرسها الطلاب"[14].

ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها، وإنما كان كذلك من بين المطالب اليهودية للفلسطينيين، أن يغيروا مناهج الدراسة، لأنهم يرون فيها تحريضا عليهم. "وقد أفادت دراسة أنجزتها منظمة أميركية غير حكومية نشرت يوم الأربعاء 2001/11/21م أن البرامج الدراسية الجديدة التي اعتمدتها السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة "لا تدرس مبادئ السلام والمصالحة مع إسرائيل".

واعتبر نائب مدير الفرع الإسرائيلي لهذه المنظمة يوهانان مانور أن "النصوص الجديدة لا تدرس مبادئ السلام والمصالحة مع إسرائيل حتى إنها ترفض وجودها ؛ "مضيفا" أن المنحى التعليمي للسلطة الفلسطينية ليس متطابقا مع المبادئ التي حددتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو)"[15].

وللمزيد من بيان الخلفية العقدية للبرامج التعليمية، أنه قد عقدت ندوة : (بناء المناهج : الأسس والمنطلقات) بكلية التربية في جامعة الملك سعود بالمملكة السعودية. حيث تنوولت مناهج (31) دولة من القارات الخمس فتأكدت النتائج الآتية :

1 ـ أن جميع الدول كانت ترجع في رسم مناهجها التعليمية إلى مرجعيتها الدينية ومنظومتها الحضارية والفكرية، بما فيهم الدول المطالبة بعولمة المناهج التربوية، فتحدد بذلك من خلالها نظرتها للآخرين.

---

(14) نفسه، ص. 31.
(15) موقع باب 2002/2/20.

2ـ أن بعض الدول تبث وتذيع عداءها للمسلمين، وتزرع الحقد والكراهية في أبنائها ضد المسلمين، وذلك عن طريق تزييف الحقائق التاريخية والعلمية، خاصة المناهج الأمريكية والبريطانية واليهودية.

3ـ أن هذه الدول تتبنى الإرهاب حقيقة وفعلا وعملا وسلوكا، وتنشيء أبناءها على ذلك، ولكن تكيل بمكيالين حين تلصق تهمة الإرهاب بالمسلمين.

بين المناهج الأمريكية والإسرائيلية وفاق وانسجام

ولنضرب على ذلك مثالين :

أ ـ من المناهج الأمريكية : كتاب (**تاريخ العالم : علاقات بالحاضر**) من تأليف : إليزابيث جينور إليس، وأنثوني إسلر. نشر هذا الكتاب سنة 1999م ويتألف من 1070 صفحة. وهو موجه لتلاميذ المرحلة الثانوية.

حظي فيه اليهود بالنصيب الأكبر، حيث تحدثوا عنهم بإسهاب كبير جدا، منذ الحضارات الأولى ثم عالم العبرانيين... إلى أن أقرا صاحبا الكتاب بأحقية اليهود في فلسطين، وأن لهم حقا فيها، وأن التاريخ يعضدهم، والواقع يساندهم. وأنهم تعرضوا للاضطهاد والقهر. ثم يصورون الفلسطينيين على أنهم إرهابيون وراديكاليون.

أما حظ المسلمين من هذا الكتاب فكان ضئيلا، أو إن شئت لم يذكرهم إلا عرضا مع التنقيص منهم، والحط من قدرهم. هذه هي العلمية والموضوعية لدى أمريكا ؟ وقس على هذا بعض الكتب المبرمجة عندهم في مناهجهم الدراسية.

ب ـ من المناهج الإسرائيلية : قد لا يخطر بالحسبان الجهد المضني الذي تبذله إسرائيل في إقامة برامجها التعليمية على مبادىء تعاليمها التلمودية اليهودية الباطلة، التي تقود أساسا وحتما إلى إنشاء أجيالها على الإرهاب المنظم، وتخريب العالم. ولكن قد يهون هذا اللون من الاستغراب حينما ندرك طبيعة اليهود النفسية والاجتماعية والتاريخية. وهذا ما يخفونه، ويتجاهلونه المهرولون والمنبطحون

نحو إسرائيل. غير أن البرامج التعليمية في إسرائيل تنبيء عن مدى عمق المنطلقات العقدية اليهودية في صياغتها.

فقد بلغت نسبة المنتسبين من التلاميذ في إسرائيل إلى التعليم الديني الحكومي في المرحلة الابتدائية 21,6%، وتبلغ نسبة المنتسبين إلى المدارس التابعة للأحزاب الدينية الأرثودكسية 9,9%[16] أي أن31% من طلاب المرحلة الابتدائية يدرسون في مدارس دينية، ولا يوجد في العالم الإسلامي دولة تبلغ نسبة الملتحقين بالتعليم الشرعي هذا الرقم.

وهذا يعبر من غير شك عن مدى ارتباط إسرائيل بيهوديتها، ووفائها لها، كما أنه يجعلنا نتساءل هل فعلا يوجد يهودي علماني، أو ليبرالي، أو إشتراكي أو غير ذلك ؟ أم أن العلمانية وكل ما نحسبه من صنع اليهود، إنما هو تم لتخريب العالم والسيطرة عليه. وأن اليهودي يظل وفيا ليهوديته كما فعل ماركس بالرغم من مقولته : الدين أفيون الشعوب. فقد ظلت له صلة بالحاخام اليهودي. هذه قضية أخرى تستحق الدراسة والبحث للكشف عن العقلية والنفسية اليهودية، وكيفية تخريبها للعالم.

ومهما يكن من أمر، فإن هناك دراسة أجريت على 380 كتابا داخل إسرائيل تصف العرب بما يلي :

لصوص (42) كتابا، مخربون (36) كتابا، قناصون وقتلة (27) كتابا، مختطفو طائرات (31) كتابا، مغتصبو أملاك (41) كتابا، يحرقون الحقول والأشجار (17) كتابا، أعمال قاسية دون تحديد (181) كتابا. ومن خلال هذه المناهج التربوية تظهر صورة العربي، كما أقر بذلك البروفيسور اليهودي كوهين من خلال تحليله لمضامين 1000 ألف كتاب باللغة العبرية، صورة قاتل أو مختطف طائرة. وأن هذه الصورة راسخة في أذهان 75 من أطفال المدارس الابتدائية[17].

---

(16) مؤسسات التعليم الإسرائيلية، ضمن كتاب : التعليم في إسرائيل ديني أم علماني، نشر مجلة **المعرفة**، 23.

(17) انظر **التعليم في إسرائيل**، 133.

من خلال هذه النماذج تظهر لنا المقاصد الاستعمارية لعولمة المناهج التربوية، التي تفضي إلى مسخ القيم الحضارية والروحية والفكرية للأمة، التي على إثرها يتأسس العمران البشري، والبناء الحضاري.

ومما ينبغي أن ننبه عليه في هذا السياق، أن أعمال الباحث اللساني اليهودي نعوم تشومسكي صاحب نظرية في اللسانيات الكلية ، والتي كانت مدعمة من قبل البانتاغون الأمريكي، قد سخرت من أجل إقامة نحو عالمي بناء على قواعد اللغة الإنجليزية، وكان القصد من ذلك مضايقة اللغات القومية والعالمية الأخرى، خاصة اللغة العربية، باعتبارها لغة القرآن الكريم.

فإن الأمر لم يعد الآن يقتصر على هذا النحو من البحوث، وإنما جنح إلى فرض تغيير جذري لمناهج التعليم في العالم الإسلامي، ومراجعة مقررات المدارس والمعاهد الشرعية، لأنه- حسب التصور العولمي الإستعماري- أن هذه المقررات تسهم في بث روح التدين الذي - حسب زعمهم - يذكي لدى معتنقيه مظاهر التطرف والإرهاب.

بل وجدنا منظمة الإسلام والغرب (وهي منظمة عالمية يرأسها اللورد كارادون وتتكون من خمسة وثلاثين عضوا عشرة أعضاء منهم من المسلمين، وقد نشأت برعاية اليونسكو وأصدرت دستورها في 1979/10/3م) تدعو صراحة إلى الإلحاد والمروق من الدين. فقد جاء في دستورها : "إن مؤلفي الكتب المدرسية لا ينبغي لهم أن يصدروا أحكاما على القيم سواء صراحة أو ضمنا، كما لا يصح أو يقدموا الدين على أنه معيار أو هدف وفيه "أن المرغوب فيه أن الأديان يجب عرضها ليفهم منها التلميذ، ليس الأساسية ولكن أيضا ما تشترك فيه مع غيرها من الأديان" وفيه : "يلزم فحص الكتب الدراسية التي قامت بتقديم الظاهرة الدينية على أن يقوم بذلك علماء من كافة التخصصات وكذلك اللادينيون"[18].

---

(18) انظر جمال عبد الهادي وآخرون، **تطوير أم تضليل في مناهج التربية الإسلامية**، ص. 41.

والخلاصة التي نصل إليها أن عولمة المناهج التعليمية، بعيدا عن الخلفية العقدية والفكرية، كما يراد منا أن نفهم، أكذوبة يردها واقع المناهج التعليمية للدول الساهرة على ترويج العولمة، والمطالبة بتغيير نظم ومناهج التعليم.

كما أنها تصطدم بطبيعة الكون والإنسان والحياة التي بث فيها خالقها عز وجل الاختلاف والتنوع والتعدد. وهذا مظهر من مظاهر عظمته، وقدرته سبحانه.

وتخالف أيضا الإعلان عن مبادىء التعاون الثقافي الدولي، حيث جاء في المادة الأولى منه :

"1 ـ لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامهما والمحافظة عليهما.

2 ـ من حق كل شعب ومن واجبه أن ينمي ثقافته.

3 ـ تشكل جميع الثقافات، بما فيها من تنوع خصب، وبما بينها من تباين وتأثير متبادل، جزء من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعا"[(19)].

ولكن كل هذه القيم، والمبادىء، والأعراف الإنسانية تهون وتداس في سبيل اليهود وحلفائهم الأمريكان. وقد صدق الكاتب الأميركي المعاصر هندرسون في انتقاده بسخرية لاذعة، وتهكم بالغ للحضارة الأمريكية في جانبها "اللامعقول" حين قال : "أن تتوقع في عصر الجنون الأميركي ألا يصيبك الجنون هو بالطبع ضرب من الجنون. ولكن السعي للعقلانية يمكن أن يكون ضربا من الجنون"[(20)].

(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) صدق الله العظيم.

---

(19) صدر عن المؤتمر العام لمنظمة الأمم لمتحدة للتربية والعلم والثقافة في دورته الرابعة عشرة، يوم 4 نوفمبر 1966.

(20) ROBERT GRUNDEN *A Brief History of American Culture* Copright,1990 p. 400. نقلا عن مجلة شؤون الأوسط عدد 113، شتاء 2004 (العولمة الثقافية ومصير الحضارات مقاربة أميركية وروسية) لسهيل فرح، ص. 52.


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذا الكتاب

رؤية في العولمة، وآفاقها، وتأثيرها، ومدى تفاعل الاجتهاد الإسلامي معها وتطوره بتأثيرها، واستجابته لتحدياتها في مجالات الحياة المتعددة ، الفقه والعلاقات الدولية، والأسرة، والتعليم، وهل للاجتهاد في الإسلام أن يقبل العولمة ويحافظ على خصوصيته الثقافية، ومقاصده الكلية، وعالميته التي انطلق بها منذ بدأته ؟ وما هي أوجه الالتقاء في عالمية الإسلام، والعولمة المعاصرة ؟ وما هي أوجه الاختلاف ؟ وما هي المقاصد المتفقة فيهما ؟ وما هي الغايات المختلفة ؟

هذه الأسئلة والإشكالات وغيرها من أمور العولمة تناولتها مباحث هذا الكتاب بتدقيق ووضوح وقوّة.

